

دراسات فى

تاريخ مصر البيزنطية

دكتور

ابراهيم خميس ابراهيم

أستاذ تاريخ المصير الرمنى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية

٤٠ فى مسوتبر - الأزارطة - ت ١٦٣ - ٤٨٣٠

٣٨٧ فى قنال السويس - العاطبي ت ١٤٦ - ٥٩٧٣

أحوال برقّة وطرابلس في أوائل العصور الوسطى
(٢٨٤ - ٤٥٥ م)

قبل أن نشرع فى الحديث عن احوال كل من برقة وطرابلس منذ أواخر القرن الثالث حتى منتصف القرن الخامس الميلادى ، يجب التنويه إلى ما ذكرته المصادر عنهما خلال هذه الفترة وإلى ما اشار إليه المؤرخون عن هذه المنطقة. إذ تشير المصادر إلى أن المنطقة الشمالية من القارة الافريقية الممتدة من غربى مصر حتى ساحل المحيط الاطلنطى كانت تعرف باسم ليبيا^(١) أو افريقيه الشمالية^(٢) ، وتذكر بعض المصادر أن ليبيا كانت تنقسم إلى منطقتين هما : ليبيا الشرقية وتضم منطقة برقة، وليبيا الغربية وتمتد من طرابلس حتى ساحل المحيط^(٣).

-
- (١) Theophanes, Chronographia, cf. P.G.M.
Tom. CV111, Paris, 1863, P.30 b;
Cantacuzenus, Chronicom, cf. C.S.H.B., Bonn,
1882, P.18;
Excerpta Edixippo, Historiorum Reliquiae, cf.
C.S.H.B., Bonn, 829, p.15
- (٢) Procopius of Caesarea, The Anecdota or
Secrst History, Tr. H.B.Deving, London, 1969, P.11;
Zosimus, Commentarus Historicus cf.C.H.S.B,
Bonn 1837, P.17.
Merobaudes et Corippus, Panegurici Reliquiae, cf C..S.H.B.,
Bonn, 1845, P.8;
Michael Clycos, Annalium, cf.C.S.H.B, Bonn, 1836, P.126;
Georgius Cederenus, Historiarum Compendium, cf.P.G.H.
Tomcxx1,Paris, 1864, P.66
- (٣) Theophanes, op.cit, P.430;
Excerpta Edixippo, Ibid;
Georgius Monchus Hamartolus, Chroicon, cf.p.G.M.
Tom. CX,Paris, 1863, P.803.

ولا نجد تفسيراً لهذا التقسيم سوى أنه تقسيماً إدارياً فحسب لم يجر إلا في منتصف القرن الخامس الميلادي تقريباً . إذ ظلت كل من برقة وطرابلس مرتبطتان إدارياً منذ عام ٢٨٤ م حتى عام ٤٤٢^(١) .

ولم تكن النظم الإدارية وحدها هي التي تربط كل من برقة وطرابلس، وإنما جمعتهما وحدة الطبيعة^(٢)، ووحدة العادات والتقاليد للعنصر البشري الذي عاش فيهما^(٣) . إذ كانت القبائل الموربة تقطن المنطقة الصحراوية الشاسعة التي تقع بها كل من برقة وطرابلس^(٤)، هذا بالإضافة إلى أن الأحوال الدينية والاقتصادية والعسكرية في كل منهما تكاد تكون متشابهة^(٥) . لكل هذه الأسباب رأينا دراسة أحوال كل من برقة وطرابلس منذ أواخر القرن الثالث حتى منتصف القرن الخامس الميلادي . على أساس أنهما يمثلان وحدة واحدة لم تكن بينها أية حواجز، وأنهما يعتبران امتداداً طبيعياً لحدود مصر من جهة الغرب^(٦) .

(١) انظر ما يلي عن النظام الإداري في كل من برقة وطرابلس.

(٢) سعد زغلول عهد الحميد: تاريخ المغرب العربي، الاسكندرية (د.ت)، ص ١٤-١٨.

(٣) شارل أندوي جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، تحرير محمد مزلي ، & البشير بن سلامة، تونس ١٩٦٩م، ص ١٢.

(٤) Zosimos, Op.cit., P. 66.

(٥) انظر ما يلي عن هذه النظم في كل من برقة وطرابلس.

(٦) حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٧٨.

وعند الاشارة إلى النظام الادارى في برقة وطرابلس فى عهد الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥ م) نجد أنهما كانتا يشكلان معا مقاطعة واحدة من ثمانى مقاطعات^(١) تتكون منهم ولاية افريقيا^(٢)، وكانت تعرف باسم مقاطعة طرابلس، وتضم عدة مناطق Tractus هى لوبيه، ومراقيه، واويا، ولبيده، وصبره، كما انقسمت هذه المناطق بدورها إلى عدة وحدات Regiones هى سرت، والبطنان، والجبل الأخضر، وبرقة الحمراء، وكانت كل حدة تنقسم إلى عدد من القرى^(٣).

وكان على رأس هذه المقاطعة موظف اداري يعرف باسم رئيس الابروشية^(٤) وله نائب وديوان للادارات المختلفة^(٥) المالية والقضائية والمحفوظات والإنشاء.

(١) Theophanes, Op. cit., P. 306.

(٢) المقاطعات هى تريبوليتانا Tripolitana (طرابلس)، وموريتانياستيفنسيس Mouretania .Sitifinsis. وموريتانيا سيزار نسيس Mouretania Caesariensis، ونوميديا Numidia، وموريتانيا تنجيتانا Mouretania Tingitana، وبيزا سنا Byzacena، وزيجيتانا Zeugitana. (زعوان) نظر:

Bury, J., History of the latter Roman Empire, 2 Vol., New York, 1985, Vol. I, P.255.

(٣) سعد زغلول: المرجع السابق، ص ٦-٩، شارل اندري: المرجع السابق، ص .

(٤) Zasmus, Op. cit., P. 17.

(٥) Theophanes, Ibid.

كما كان يتراًس عدداً كبيراً من الموظفين المدنيين، وكنت مهمة هذا الجهاز الادارى تقدير الضرائب وجمعها، وممارسة أعمال القضاء، وأرسال الضرائب إلى حاكم ولاية افريقية فى قرطاج تمهيداً لارسالها للإمبراطور^(١).

وكانت مدينة طرابلس هي عاصمة هذه المقاطعة ومقر الحاكم الادارى وجهازه من الموظفين، وكان لهذه العاصمة مجلس بلدى Ordo-Decurionum تمثل الطبقة الارستقراطية فى طرابلس معظم أعضائه، وكان يرأسه اثنان من الموظفين الاداريين يتم انتخابهما كل عام بواسطة أعضاء المجلس^(٢)

أما عن المناطق، فكان على رأس كل منطقة موظف ادارى يساعده مجلس للشورى يتكون أيضاً من الطبقة الارستقراطية التى تعيش داخل هذه المنطقة وكان مسئولاً عن المحافظة على النظام فى منطقتة، وتقديراً للضرائب وجمعها وأعمال القضاء^(٣).

Zosimos, Op. cit., PP. 71, 95, 98

(١)

Theophanes, Op. cit., p. 308

(٢)

Zosimos, Op. cit., P. 95.

(٣)

وكان على رأس كل وحدة من الوحدات الادارية موظف أقل مرتبة من حاكم المنطقة، ويساعده مجلس يتكون من شيوخ هذه الوحدة^(١).

٦ وطبقا لسياسة الإصلاح التي وضعها الإمبراطور دقلديانوس، والتي كان من أهم معالمها فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية^(٢) لم يبق هؤلاء الموظفون بنشاط حربي طوال عهد الإمبراطور دقلديانوس رغم التهديدات التي تعرضت لها المقاطعة نتيجة لغارات القبائل البدوية. إذ تشير بعض المصادر البيزنطية إلى أن هذه القبائل شنت الغارات على المناطق الزراعية في العام الخامس عشر من عهد الإمبراطور دقلديانوس^{*}، وحدثوا كثيراً من الاضطرابات مما أزعج نظيره مكسيميان Maximian ، فقاد الجيش النظامي للإمبراطورية، ورافقه القائد رومينوس Ruminus ، ونجح في القضاء على تمرد هذه القبائل. ورغبة من مكسيميان في إجبار هذه القبائل على الاخلاص للسكينة، أتفق مع شيوخهم على الصلح^(٣) ، ولكن بمجرد رحيل الإمبراطور والجيش عادت هذه القبائل إلى شن الغارات واحداث الشغب، ولذلك أطلقت عليهم بعض المصادر اسم

(١) Zosimos, Op. Cit., P. 79;

Theophanes, op. Cit., p. 306.

(٢) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956, P.31.

(٣) لم تشر المصادر إلى شروط هذا الصلح.

Pacati اي ناقضى السلام^(١).

علي أية حال استمر هذا النظام الإداري في مقاطعة طرابلس منذ عهد الإمبراطور دقلديانوس حتي عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠)^(٢)، وفي الوقت نفسه استمرت غارات البدو علي المناطق الزراعية خلال هذه الفترة^(٣) مما جعل حاكم مقاطعة طرابلس يجمع بين السلطين المدينة والعسكرية^(٤).

ولم يكن جمع السلطين في يد الحاكم هو التغيير الوحيد الذي طرأ على هذه المقاطعة، وإنما أدت المعاهدة التي عقدها. ثالنشيان الثالث Valentinian III امبراطور القسم الغربي من الأمبراطورية الرومانية (٤٢٥ - ٤٥٥ م ٩ مع الوندال عام ٤٤٢ م^(٥) إلى نتائج مؤثرة على التقسيم الإداري في كل من برقة وطرابلس. إذ انسلخت

(١) Meroboudes, Op. cit, P. 225;

Theophanes, Op. cit., P. 306.

Zosimos, Op. cit., P. 98; (٢)

Theophanes, Op. cit., P. 308.

Meobaues, Ibid. (٣)

Babour, N., A Survey of North Africa, New York, 1959, PP. 10-11. (٤)

(٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه المعاهدة:

محمود سعيد عمران: مملكة الوندال في شمال افريقيا، الاسكندرية ١٩٨٥، ص ٣٢-٣٦، وأيضاً:

Gibbon, E., The history of the Decline and Fall of the Roman empire,

7Vols, London, 1925, Vol. III, PP. 481-484;

Lot, F., The end of the Ancient world and the Beginning of the

Middle age, London, 1931, PP.207-210.

برقة عن مقاطعة طرابلس واصبحت تمثل مقاطعة قائمة بذاتها ضمن ولاية مصر^(١)، بينما تطلع الوندال إلى السيطرة على طرابلس حتى نجحوا في عام ٤٥٥ م من الاستيلاء عليها^(٢).

أما عن النظام الحربى، فقد كانت كل من برقة وطرابلس مركزاً للفرق العسكرية المعروفة بجيش الأطراف أو الحدود Limitanei الذى يقوم أفراده بزراعة الارض التى يحوونها كنوع من الأقطاع العسكرى، وترتبط أحقيتهم فى ملكية هذه الأرض بأداء الخدمة العسكرية، ويسمح لأبنائهم أن يرثوا هذا الأقطاع بشرط أدائهم للخدمة الحربية. وقد تمتع أفراد هذا الجيش بالإعفاء من دفع الضرائب والالتزامات البلدية عندما يبلغ أحدهم سن الاربعين ويتم إعفاؤه من الخدمة^(٣).

وكانت مهمة جيش الأطراف حراسة الحدود، والمناطق الحصينة التى شيدت بالقرب من المناطق الزراعية لحماية حمايتها من غارات البدو^(٤)، وكان يتولى قيادة هذا الجيش فى مقاطعة طرابلس أحد

(١) محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، الإسكندرية ١٩٩٤، ص ٤٩.

(٢) محمود سعيد عمران : المرجع السابق، ص ٣٩.

Zosimos, Op.cit., P. 98; (٣)

Theophanes, Op. cit., P. 225.

Merobaudes, Op. cit., P. 225. (٤)

القادة العسكريين الذي يعينه دوق ولاية افريقيا. (١)

والى جانب جيش الاطراف في مقاطعة طرابلس كانت هناك فرق عسكرية أخرى منها الفرق المحالفة من قبائل الموريين (٢). اذ لجأت الأمبراطورية البيزنطية إلى ما يعرف بنظام المحالفة أو المعاهدة، ويعني التحالف مع الشعوب التي تعيش على أطراف حدود الأمبراطورية، حيث ارتبط هؤلاء المحالفين بمعاهدة تحالف مع الأمبراطورية تعهدوا فيها بحماية انفسهم وحماية حدود الأمبراطورية في مقابل إعفائهم من الضرائب أو الاتاوات، وتطور الأمر إلى أن أصبح هؤلاء المحالفين يحصلون على أموال من الأمبراطورية مقابل اداء هذه الخدمات. (٣)

ومن الفرق العسكرية التي وجدت أيضا في مقاطعة طرابلس فئة من الجنود المأجورين الذين كانوا بمثابة حرس خاص لكبار الموظفين أو بعض ملاك الاراضي الزراعية، ولم تكن هناك صلات تربطهم بالجيش أصلا حتى قام الاقطاعيون وسادة هؤلاء الجنود بعرض خدماتهم

(١) Zosimos, Op. Cit, P. 98.

(٢) Joannes Zonaras, Annalium, cf. P.G.M., Tom. Cxxxiv, Paris, 1864, P. 62.

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ: المرجع السابق، ص ٧١.

(٤) Zosimos, Ibid.

على الدولة مقابل حصولهم على بعض الأموال^(١).

وعن الأحوال الدينية في كل من برقة وطرابلس، نجد أن انتشار المسيحية في هذه المنطقة كان بطيئاً ومحدوداً^(٢)، ولعل هذا الأمر يرجع إلى ابتعاد برقة وطرابلس عن مراكز نشر المسيحية في مصر وقرطاج، وقلة عدد رجال الدين الذين توجهوا إلى المراكز العمرانية في المنطقة للتبشير بالمسيحية، وصعوبة ملاحقة القبائل البدوية في هذه الصحراء الشاسعة، هذا بالإضافة إلى اضطهاد الرومان لاتباع المسيحية في المرحلة الأولى قبل عهد الأباطور قنسطنطين.

ومهما يكن من أمر فقد بدأت المسيحية تشق طريقها إلى هذه المنطقة في أواسط القرن الثالث الميلادي نتيجة لجهود احد القديسين ويدعى سيبيريان St Cyprien. إذ نجح في أقناع بعض الأفراد باعتناق المسيحية خاصة عددا من الجنود في جيش الاطراف. بيد أن هؤلاء المسيحيين بدأوا يتعرضون للاضطهاد من السلطات الرومانية الحاكمة وبلغ هذا الاضطهاد ذورته في عهد الإمبراطور دقلديانوس مما دفع الكثيرين منهم إلى الارتداد عن دينهم^(٣).

(١) محمد محمد مرسى الشيخ: المرجع السابق، ص ٧١.

(٢) Merobaudes, Op. cit., P. 42.

(٣) Theophanes, Op. cit., P. 313.

وبعد أن اعترف الإمبراطور قنسطنطين Constantine (٣٠٥ - ٣٢٧م) بالمسيحية كاحدى الديانات الرسمية في الإمبراطورية^(١) ، عادت المسيحية إلى الانتشار في برقة وطرابلس إذ شيدت بعض الكنائس في المدن الرئيسية التابعة لهذه المقاطعة، وظهرت في هذا المجتمع طبقة جديدة من رجال الدين سواء كانوا من الاساقفة أو القساوسة أو الشمامسة، وبدأت المدارس الدينية الملحقه بهذه الكنائس في تعليم الصغار كى يصبحوا مؤهلين لتقلد الوظائف الدينية^(٢) .

وعلى الرغم من انتشار المسيحية انتشاراً حثيثاً خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين الا أن رجال الدين في برقة وطرابلس واجهوا كثيراً من الصعوبات بسبب الخلافات التى بدأت تلوح في الأفق، ومنها كيفية معاملة الأفراد المرتدين عن الدين زمن الاضطهاد، بالاضافة إلى الأختلافات المذهبية^(٣) .

(١) Vasiliev. A. A., History of the Byzantine Empire, 2 Vols, Univer. of Wisconsin Press, 1961 - 1962, Vol. I, P. 52.

(٢) Theophanes, Op. cit., P. 310.

(٣) عن هذه الاختلافات انظر: شارل اندرى : المرجع السابق، ص ٢٨٨ - ٢٩٠، سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٦٦.

أما عن الأحوال الاقتصادية، فقد كانت حرفتى الزراعة والرعى
تشلان عماد النشاط الأقتصادي في كل من برقة وطرابلس. إذا
انتشرت الزراعة فى السهول الساحلية المطلة على البحر المتوسط،
وفى الواحات ولا سيما واحة برقة.

واعتمدت الزراعة فى هذه المناطق على مياه الآبار والأمطار
التي يتم تخزينها فى خزانات تبني تحت مستوى سطح الأرض لتتجمع
بها هذه المياه، ثم يتم رفعها بواسطة أنابيب لرى الاراضى
الزراعية^(١).

وكانت لأراضى الزراعية فى بداية الامر ملكا للدولة أو
الإمبراطورية ثم حدثت تطورات هامة علي ملكية هذه الأراضى فى
أواخر القرن الثالث الميلادى. إذ شاع حق ملكية الاراضى للأفراد منذ
عهد الإمبراطور دقلديانوس، وتقرر تأجير أو بيع هذه الاراضى بشرط
أن يقبل المشتري أن يتحمل مسئولية تسديد ما عليها من التزامات
وضرائب^(٣).

(١) Michael Clycas, Op. cit., P. 126.

(٢) Zosimos, Op. cit., P. 21.

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ: المرجع السابق، ص ٥٥.

وكانت أهم المحاصيل التي تزرع في هذه المناطق هي الحبوب من القمح والشعير، وأشجار الزيتون، ولساتين الكرم والتين إلى جانب النخيل (١).

وكانت هذه المحاصيل تمثل أساس النشاط الإقتصادي في هذه المناطق (٢). اذ كان انتاج الزيتون والكروم والتين والنخيل يفيض عن حاجة السكان، ومن ثم قامت عليها صناعات مختلفة منها تجفيف التين والكروم والتمر، وصناعة النبيذ، وزيت الزيتون.

وإلى جانب هذه الصناعات، عرف سكان برقة وطرابلس بعض الصناعات البدائية الأخرى. لا سيما صناعة الأواني الفخارية، وصناعة المنسوجات (٣).

أما عن الرعى، فقد عاش البدو الرعاة حياة التنقل بين أراضي العشب والمراعى الممتدة في هذه الصحراء لرعى الأغنام والماعز، والأبل

(١) Michael Clycas, Op. cit., P 126

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق، ص ٤٨.

(٣) Michael Clycas, Op. cit., P. 42;

Zosimos, Op. cit., PP. 77, 91

والخيول للاستفادة من لحومها والبانها ووبرها، والمتاجرة فيها. وقامت على هذه الحرفة أيضا بعض الصناعات منها صناعة منتجات الالبان، وغزل الصوف لصنع الملابس، وايضا صناعة الخيام من جلود الماعز^(١).

وبالنسبة للتجارة، فقد كان التين، والزيتون وزيته أهم السلع التجارية لهذه المناطق^(٢)، ولم تزدهر التجارة في برقة بسبب قلة المنتجات التجارية من جهة، ومن جهة أخرى أدت غارات البدو المتكررة على المدن الرئيسية التي تعثر التجارة بها.

اما عن الضرائب فلقد تدخل اعضاء المجالس البلدية فى توزيع قيمة الضرائب على الوحدات، وجباتها تنفيذا لاوامر الإمبراطور كل عام. إذ لم يكن مقدار الضريبة المطلوبة ثابتا، وإنما يجرى تقديره كل عام بمقتضى أمر امبراطورى بناء على التقارير التى يرفعها مندوبون عينوا لهذه المهمة^(٣).

Joannes Zonaras, Op. cit., P. 246.

(١)

Zosimos, Op. cit., P. 91.

(٢)

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق، ص ٦١.

وكان تقدير الضرائب على الاراضى الزراعية يختلف من منطقة إلى أخرى حسب خصوبة تربتها وكيفية ردها ، ومساحتها ، ويري جباية ضريبة الارض عينا ، اما الضريبة التي فرضت على الإبل ، والحمير ، والماعز ، والخيول ، فكان يتم تقديرها حسب اعدادها ، وتدفع نقدية (١) .

أما عن الأحوال الاجتماعية ، فقد انقسم سكان المناطق في بركة وطرابلس إلى فشتين رئيسيتين هما البدو والحضر ، ولم تكن الفوارق الطبقيية واضحة بين سكان البادية ، بينما ظهرت بوضوح في مجتمع الحضر الذي استقر بالقرب من المناطق الزراعية ، لا سيما بين الطبقة الارستقراطية التي امتلكت الاراضى الزراعية ، وطبقة الزراع الذين كانوا يعملون في هذه الاراضى . إذ عاشت الطبقة الاولى حياه ناعمة داخل المنازل الفخمة والقصور ، بينما عانت طبقة الزراع من قسوة المعيشة ، وعاشوا داخل بيوت متواضعة (٢) . وان كانت حياتهم افضل بكثير من البدو الرحل الذين نظروا بعين الحسد إلى مجتمع الحضر ، وظلوا يشنون الغارات المتتالية على المناطق الزراعية .

(١) Zosimos, Op. cit., PP. 71. 294 .

(١)

Theophanes, Op. cit., P. 308.

ويختم حديثنا عن هذه المنطقة بالاشارة إلى النشاط العمرانى فى برقة وطرابلس. اذ شيدت المنشآت المعمارية كالحمامات والمسارح والملاعب فى كثير من المدن الرئيسية التابعة لمقاطعة طرابلس، وبنيت المنشآت الدينية كالمعابد والكنائس والمدارس فى هذه المناطق، هذا بالاضافة إلى المنشآت العسكرية كالقلاع والحصون عند اطراف الحدود، وبالقرب من المناطق الزراعية لحمايتها من غارات البدو، كما تم تعبيد الطرق لسهولة انتقال الفرق العسكرية الى مناطق الخطر الذى يهدد المنطقة^(١).

هذا عرض لاهم ملامح المجتمع الليبى فى كل برقة وطرابلس منذ أواخر القرن الثالث حتى منتصف القرن الخامس الميلادى.

Georgius Cedrenus, P. 954.

(١)

قائمة باسماء المصادر والمراجع

أولاً: بيان المختصرات التي وردت في الحواشي:

C. S. H. B : Corpus, Scriptorum Historiae
Byzantinae.

P. G. M. : Patrologia Graeca Ed Migne.

ثانياً: المصادر الاجنبية:

Cantacuzenus, Chronicom, cf. C. S. H. B.,
Bonn, 1882.

Excerpta Edixippo, Historiarum Reliquiae cf.
C.S.H.B., Bonn, 1829.

Georgius Cederenus, Historiqruum Cpmpendi-
um, cf.P.G.M.Tom. CXX1, Paris,
1846.

Georgius Monchus Hamartolus, Chroicon, cf. P.
G. M., Tom. Cx, Paris 1863.

Joanes Zonaras, Annalium, cf. P.G.M., Tom
Cxxxiv, Paris, 1864.

Merobaudes et Carippus, Pangurici Reliquiae
cf. C. S. H. B., Bonn, 1845.

Michael Clycos, Annalium, cf. C. S. H. B., Bonn,
1836.

Procopius of Caesarea, The Anecdota or Secret.
History, Tr. H.B. Dewing, London,
1969.

Theophanes, Chronographia, cf. P. G. M., Tom.
CV11, Paris, 1863.

Zosimos, Commentorus Historicus, cf. C.S.H.B.,
Bonn, 1837.

ثالثاً: المراجع الاخرى

- Babour, N., A Survey of North Africa, New York, 1959.
- Bury, J., History of the Latter Roman Empire, 2 Vols, New York, 1985
- Gibbon, E., The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 Vols, London, 1925.
- Lot, F., The end of the Ancient World and the Beginning of the Middle Ages, London, 1931.
- Ostrogorsky, G., History of the Byzantine state, Oxford, 1956.
- Vasilive, A. A., History of the Byzantine Empire, 2 Vols, Univer. of Wisconsin Press, 1961-1962.

رابعاً: المراجع العربية والمعربة

حسني محمد ربيع (دكتور):

«دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية»، القاهرة ١٩٨٣م.

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور):

«تاريخ المغرب العربي»، الاسكندرية (د . ت).

شارل اندرى جوليان:

«تاريخ إفريقيا الشمالية»، تعريب محمد مزالى & البشير

أبن سلامة، تونس ١٩٦٩م.

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):

«تاريخ مصر البيزنطية»، الاسكندرية ١٩٩٤م.

محمود سعيد عمران (دكتور):

«مملكة الوندال في شمال افريقيا»، الاسكندرية ١٩٨٥م.

مجاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين

فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى

الفصل الثاني

معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين

في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي

تتمثل في مبادئ الدين الإسلامي كل معاني المودة والسلام ، ويحوى سجل المسلمين على امتداد تاريخهم الطويل مجموعة متعددة من نماذج المهادنة التي تحقق الدماء ، وقد رواق الأمان ، وتفند سيوف الحرب ، وتكف السهام الراشقة وتعتل الرماح الخطاره ، وذلك أتقياداً لأمر المولى عز وجل للرسول عليه الصلاة والسلام بالمطامعة على الصلح ، والإجابة إلى السلم (وأن جنحوا للسلم فاجنح لها توكل على الله) . (١)

ويمكن أن تنتخب من السجل الإسلامي ما يدل على هذا دلالة واضحة في هذا البحث المعنون " معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي / الثلث الثاني من القرن الأول الهجري " . ولا أدعى أن هذا الموضوع الذي انتقته من صفحات التاريخ الإسلامي بالغ الأهمية لأن موضوع العلاقات السياسية بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية من أكثر الموضوعات التي تصدى لها المؤرخون القدامى والحديثون بالكتابة . بيد أن المهادنات بين الفريقين في القرن الأول والهجري / القرن السابع الميلادي تعتبر من أكثر الموضوعات الشائكة التي اختلفت حول تاريخها وترتيب احداثها المصادر التاريخية

وإذا قصرنا النظر على دائره أضيق وانتقلنا من التعميم إلى التخصيص وجدنا ان كتابات المؤرخين القدامى قد اختلفت حول المعاهدات التي عقدها معاوية بن ابي سفيان بصفه خاصة مع البيزنطيين .

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المصادر العربية ، نلاحظ أن الروايات التي أشارت إلى تلك المعاهدات يمكن أن تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى تتضمن ما أورده كل من ابن قتيبة (٢) والطبري (٣) والدينوري (٤) إذ يشيرون إلى أن " قيصر الروم " زحف بجنده لمقاتلة

(١) سورة الأثفال ، آية ٦١ -

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ٢ ج (في مجلد واحد) مصر ١٩٠٤م ، ١ ج ، ص ١٦٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ١٠ ج ، بيروت ١٩٧٩م ، ٦ ج ، ص ١٨٦ .

(٤) الدينوري : كتاب الأخبار الطوال ، بغداد ١٩٥٩م ، ص ١٥٧ .

المسلمين أثناء فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية ، وأن عمرو بن العاص قدم النصيحة لمعاوية بضرورة مودة قيصر الروم في تلك الفترة بإعطائه المال والحلل ، وإطلاق سراح الأسرى. وبذلك لم تحدد تلك الرواية التاريخ الدقيق لتلك المعاهدة ، وإنما اكتفت بالإشارة إلى أنها كانت أثناء فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية .

أما المؤرخ ابن كثير فكان أكثر تحديداً ، وأشار إلى أن " ملك الروم " قد طمع في معاوية بعد أن كان يخشاه . فزحف بجيش كبير لمحاربة المسلمين ، عندئذ أرسل إليه معاوية كتاباً يتوعده ، فبعث يطلب المهادنة ، ثم كان من أمر التحكيم " (١) وبذلك يحدد ابن كثير تاريخ المهادنة ويجعلها قبل أمر التحكيم بين علي ومعاوية .

أما عن المجموعة الثانية فتتضم رواية كل من خليفة بن خياط ، واليعقوبى . إذ يشير الأول إلى أن معاوية قد " صالح الروم " في عام ٤١ هـ / ٦٦١ م (٢) . أما اليعقوبى فيورد أن معاوية قد بلغه في عام ٤١ هـ / ٦٦١ م أن " طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة وخلق عظيم فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبيره وإحكامه فوجه إليه فصالحه على مائة ألف دينار " (٣) .

وبالنسبة للمجموعة الثالث وتتضمن إشارات عابرة لكل من ابن سلام (٤) والبلاذرى (٥) والشيباني (٦) ، وابن الطقطقى (٧) ، تفيد أن مهادنة تمت بين معاوية وبين الروم .

(١) ابن كثير : البدايه والنهاية ، ١٤ ج في ٧ مجلدات ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ج ٨ ، ص ١١٩ .
(٢) خليفة بن خياط تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د . اكرم ضياء العمري ، الرياض ١٩٨٥ م ، ص ٢٠٥ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣ ج ، النجف ١٣٥٨ هـ ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ٢١٣ .

(٤) ابن سلام : كتاب الأموال ، مصر ، (د . ت) ، ص ١٦٢ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ليدن ١٨٦٦ م ، ص ١٥٩ .

(٦) الشيباني : شرح كتاب السير الكبير ، تحقيق عبد العزيز أحمد ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ص ١٧٥٣ .

(٧) ابن الطقطقى : القمخري في الآداب السلطانية ، مصر (د . ت) ، ص ٥٩ - ٦٠ .

اما المسعودى والنويرى فقد أشارا فى رواية مختصرة إلى أن معاوية بن أبى سفيان قد هادن كل من الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى^(١) Constans 11 (٦٤١ - ٦٦٨ م / ٢١ - ٤٨ هـ) ، وابنه الإمبراطور قنسطنطين الرابع^(٢) Constantine IV (٦٦٨ - ٦٨٥ م / ٤٨ - ٦٥ هـ)^(٣) .

وأهم ما نلاحظه فى الكتابات العربية حول تلك المعاهدات أنها جميعا لم تحدد بنود الصلح التى اتفق عليها الجانبان ، وأنها - فيما عدا ما أورده كل من خليفة بن خياط واليعقوبى - لم تحدد التاريخ الدقيق لتلك المهادنات .

أما عن المصادر البيزنطية فتبدأ بروايات ثيوفانيس Theophanes والتى تشير الى أن معاوية بن ابى سفيان قد عقد ثلاث معاهدات مع البيزنطيين . الأولى كانت فى العام الخامس من حكم ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م) وفى اثناء الفترة الممتدة من أول سبتمبر عام ٦٥٠ م / ٢٨ ذى الحجة عام ٢٩ هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٥١ م / ٨ المحرم عام ٣١ هـ عندما كان معاوية أميراً على الشام . إذ أرسل الإمبراطور قنسطانز الثانى رسولا يدعى بروكوبيوس Prokopios لعرض رغبة الإمبراطور فى عقد اتفاقية للسلام بينهما . وتشير الرواية إلى أن المعاهدة قد أبرمت بالفعل فى تلك الفترة وكانت لمدة عامين ، وأن معاوية قد أحتجز بعض الرهائن البيزنطيين فى دمشق ومن بينهم جريجورى^(٤) Gregory ابن ثيودور Theodore^(٥) .

(١) يطلق عليه المسعودى اسم « مورك بن مورك » والنويرى اسم « فوق بن مورك »

(٢) يطلق عليه المسعودى اسم « قلفط بن مورك » والنويرى اسم « فلقط بن مورك »

(٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ ج ، بيروت ١٩٨٣م ، ١ ج ، ص ٢٢٩ : النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ٢٧ ج ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، ١٥ ج و ص ٢٨٠ .

(٤) Theophanes , The Chronicle of Theophanes (A.D 602 - 813) Tran . By Harry Turtledove , U. S. A., Pensylvania , 1982 , p . 44 .

(٥) ثيودور هو شقيق الإمبراطور قنسطانز الثانى . انظر : Theophanes , op . cit , p 47

ونلاحظ في هذه الرواية أن مبادرة السلام جاءت من جانب الإمبراطور البيزنطي ، وأنها لم تشر إلى بنود اتفاقية السلام بين الجانبين ، وأن هذا الاتفاقية عقدت بين الإمبراطور البيزنطي وبين معاوية رغم كونه والياً على الشام ، وأن الرواية لم تشر إلى قيام الخليفة عثمان بن عفان بالتوقيع على تلك الاتفاقية .

أما عن المعاهدة الثانية التي يشير إليها المؤرخ ثيوفانيس فكانت في العام الثالث بعد مقتل الخليفة عثمان (١) بن عفان وفيما بين عامي ٦٥٨ - ٦٥٩ م / ٣٨ - ٣٩ هـ بعد أن أرسل معاوية لعقد اتفاقية للهدنة مع البيزنطيين ، وتنص الاتفاقية على قيام المسلمين بدفع الف نوميسماتا Nomismata (٢) ، وحصاناً ، وإطلاق سراح أسير بيزنطي كل يوم (٣) .

وأهم ما يسترعى الانتباه في تلك المعاهدة أنها عقدت في الفترة التي نشب خلالها النزاع بين معاوية وعلى بن أبي طالب ، وأن الرواية لم تشر إلى تبادل الرهائن بين الجانبين ، ولم تحدد مدة المعاهدة بينهما .

وبالنسبة للمعاهدة الثالثة ، فقد أورد ثيوفانيس أنها عقدت في العام التاسع من حكم الإمبراطور قنسطنطين الرابع فيما بين عامي ٦٧٧ - ٦٧٨ م / ٥٧ - ٥٨ هـ ، وفيها تعهد معاوية بدفع اتاوة سنوية للبيزنطيين عبارة عن ثلاثة آلاف نوميسماتا وخمسين حصاناً أصيلاً، وإطلاق سراح خمسين أسيراً من الأسرى البيزنطيين ، وأن تكون مدة المعاهدة ثلاثين عاماً (٤) . وتوضح الرواية أسباب انعقاد تلك المهادنة فتشير إلى أن المردة (٥) قد ثاروا في منطقة جبل

(١) كان مقتله في يوم الجمعة ١٨ ذي الحجة عام ٣٥ هـ / ١٧ يونيو عام ٦٥٦ م . انظر: الطبري : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤١١ - ٤١٢ .

(٢) عمله بيزنطية تساوي $\frac{1}{72}$ من الرطل ذهباً - انظر محمود سعيد عمران : إدارة الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ٨٥ ، ح ١١) .

(٣) Theophanes , op Cit . p . 45 .

(٤) I bid . p . 54

(٥) هم الجراجمة ، وأطلق عليهم أسم المردة لكثرة عصيانهم . ولزيد من التفاصيل عن الجراجمة . انظر البلاذري . المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٣ ؛ وايضا : فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي . الاتصال الحضاري ، ج٢ ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ج١ ، ص ٣٦٢ ؛ عيد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج٢ ، القاهرة ١٩٧٩ م ، ج٢ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

لبنان ، وانضم اليهم كثير من العبيد والاسرى والاهالى ، فزاد عددهم إلى الوف كثيرة مما أزعج معاوية ومستشاريه ، فأرسلوا سفارة إلى الإمبراطور قنسطانز الثانى لطلب عقد المهادنة فى مقابل دفع إتاوة سنوية . ولقد أستقبل الإمبراطور البيزنطى رسل معاوية بالترحاب والتكريم، وعند عودتهم الى الشام أرسل فى صحبتهم رسولا يدعى حنابتيجودس John Ptzigaudis الذى وصفه ثيوفانيس بانه «مكث فترة طويلة يعمل فى الجهاز الادارى ، ويتصف بالفطنة والحكمة » ، وكان الغرض من بعثته الاتفاق مع العرب على شروط السلام . وقد استقبله معاوية فى مدينة دمشق بكل الإعزاز .

وبعد مداوات طويلة بين الجانبين تم الاتفاق على عقد معاهدة السلام بينهما على ان تذليها صيغة اليمين المعهود لدى الطرفين . وبعد تدوين بنود المعاهدة ، وتوقيع الجانبين على نسختين منها ، وبعد اداء اليمين احتفظ كل جانب بنسخة من تلك المعاهدة ، وعاد المبعوث الإمبراطورى إلى موطنه محملاً بكثير من الهدايا النفيسة (١) .

وتتفق رواية المؤرخ موناخوس همرتولوس Monachus Hamartolus مع رواية ثيوفانيس بشأن المعاهدة الأولى التى كانت بين معاوية وبين الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى فى عام ٦٥١م/٣١هـ ، ويشير إلى أن الاتفاقية بينهما أنتهت بهجمة معاوية لجزيرة رودس عام ٦٥٣م/٣٣هـ (٢) كما تتفق ايضا رواية كل منهما حول المعاهدة التى كانت بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى فى عام ٦٧٨م/٥٨هـ ، ويحدد موناخوس تاريخ الهجوم الذى قام به المردة على لبنان بعام ٦٧٧م/٥٧هـ . والأختلاف الوحيد بين الروايتين ينحصر فى أن موناخوس قد أورد ضمن بنود هذه المعاهدة أن العرب تعهدوا بتقديم مائة من الجياد الأصيلة كل عام (٣) ، بينما يحددها ثيوفانيس بخمسين فقط .

(١) Theophanes , op . cit . , pp. 53 - 54 .

(٢) Georgius Monachus Hamartolus , Chronicon , Ed . Migne , Patrologia Greaca , Tome , cx , Paris , 1863 , 1863 , CoL . 862 .

(٣) Hamartolus , op . cit . , col . 895 .

ويتفق ما أورده كل من جوزيف جنزيوس Joseph Genesius ونيقفور-Nicephorus Patriarchae مع رواية ثيوفانيس بشأن معاهدة عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، ولكنهما لم يذكرها أنها كانت بسبب المردة . (١)

ويشير من جورج كدريوس^(٢) Georguis Cedrenus وحننا زوناراس^(٣) Joannes Zonatas ، وليوجراما تيكوس Leo Grammaticus^(٤) إلى المعاهدة التي عقدت بين معاوية وبين الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، ولكنهم لم يحددوا بنود تلك المعاهدة .

أما عن المصادر الأرمينية ، فيورد المؤرخ سيبوس Sebeos أن الاتفاقية التي كانت بين العرب وبين البيزنطيين . انتهت في العام الثاني عشر من حكم الإمبراطور قنسطنطين الثاني^(٥) (في عام ٦٥٣ م / ٣٣ هـ) . وإذا أخذنا هذه الرواية بعين الاعتبار وجدنا أنها تتفق مع رواية كل من ثيوفانيس ، وموناخوس همرتولوس بشأن المعاهدة الأولى عام ٦٥١ م / ٣١ هـ .
وبالنسبة للمصادر السريانية ، يشير المؤرخ ميخائيل السرياني Michel le Syrien إلى أن معاوية عقد الهدنة مع الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الثاني أثناء النزاع مع علي بن أبي

(١) Genesius , J ., Historia De Rebus Constantinopolitanis , Ed . Migne , Patrologia Graeca , Tome CIX , Paris , 1863 , CoL . 13 ;

Nice phrus patriarchae , Breviarum Historicum , Ed. Migne Patrologia Graeca , Tome C , CoLs ., 930 , 936 .

(٢) Cedrenus , G., Historiarum Compendium , Ed . Migne , Patrologia Graeca , Tome CXXI - CXXII , Paris , 1864 - 1894 , Tome CXXI , CoL . 843 .

(٣) Zonaras ., J., Epitome Historiarum , Ed . Pender , M. 3 vols , Bonne , 1841 - 1892 , vol . , p. 321 .

(٤) Leo Grammaticus , Chronographia , Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Bonne , 1892 , p. 162 .

(٥) Sebeos , Histoire d'Herclius , Tr . Macler , F., Paris , 1904 , p. 137 .

طالب ، كما عقد معاهدة مع الإمبراطور قسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ (١١) . ومن المؤرخين النصارى الذين دونوا كتابتهم باللغة العربية بشير أجابوس بن قسطنطين المعروف بالمنبجي Agapius إلى أنه في العام الثالث من عهد الخليفة عثمان بن عفان وجه ملك الروم " قسطوس" (٢) رسلا إلى معاوية يسأله الصلح ، وكان الرسول " منويل " ومنه بعض الروم ، فأجابه معاوية إلى ذلك على أن يترك عنده عده من أهل بيته رهائن (٣) " ونلاحظ أن هذه الرواية تتفق مع ما أورده ثيوفانيس عن المعاهدة التي عقدت بين الإمبراطور البيزنطي وبين معاوية عندما كان الأخير والياً على الشام ، وأن الاختلاف بين الروایتين ينحصر في تاريخ المعاهدة ، واسم الرسول الذي أورده كل منهما .

ومن خلال العرض السابق للروايات العربية وغير العربية للمعاهدات التي أبرمها معاوية مع البيزنطيين يتضح أن المؤرخين القدامى قد حددوا أربعة تواريخ لهذه المعاهدات : الأول في عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ، والثاني يحددها في فترة النزاع بين على بن أبي طالب ومعاوية ، والثالث يشير إلى أنها كانت في عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، والرابع يحددها في عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

وعدت مقارنة هذه الروايات لاستقصاء الوقائع وربط بعضها ببعض للوصول الى نتيجة محددة نلاحظ أن الذين قالوا أن ثمة معاهدة عقدت عام ٦٥١ م / ٣١ هـ هم المؤرخون الغربيون، بينما أنفرد بعض المؤرخين المسلمين بالقول أنها عقدت عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، وأن هناك تشابهاً بين الروايات العربية وغير العربية فيما يتعلق بمعاهدتين كانت الأولى منهما في أثناء الصراع بين على ومعاوية ، والثانية في عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

ولما كان تحديد تاريخ هذه المعاهدات على جانب كبير من الأهمية لتوضيح التسلسل التاريخي ، وتقويض الأسس التي أدت إلى الأخطاء التاريخية فينبغي استعراض هذه الروايات ومناقشتها .

Michel le Syrien , Chronique , Textes Syriaque et Trad . Fr . Par J.B.(١) Chabot , 4 vols , Paris , 1899 , Val 11 , p. 450 , 469 .

(٢) المقصود الإمبراطور قسطنطين الثاني

(٣) المنبجي : المنتخب من تاريخ المنبجي ، انتخبه وحققه أ . د . عمر عبد السلام تدمري ، لبنان ١٩٨٦ م ،

ص ٥٧ .

أن الرواية التي تشير الى أن ثمة معاهدة عقدت بين المسلمين والبيزنطيين عام ٦٥١ م / ٣١ هـ بمبادره من جانب البيزنطيين ، وهي التي اشارت إليها المصادر غير العربية . يرى الباحث ان هذه المبادرة جاءت نتيجة انتصارات المسلمين المتلاحقة (١) على البيزنطيين (٢) . وعلى الرغم من أن تلك المصادر لم تشر إلى بنود هذه المعاهدة ، واكتفت بالإشارة إلى أمدها ، وأنها كانت لمدة عامين ، فمن المرجح أن بنود هذه المعاهدة كانت في صالح المسلمين (٣) .

أما عن الرواية الثانية ، والتي أوردتها المصادر العربية وغير العربية . وعلى الرغم أنها أتفقت على أن المعاهدة أبرمت اثناء فترة النزاع بين على ومعاوية إلا أنها اختلفت في التحديد الدقيق لتاريخها . فيذكر ابن كثير أنها حدثت قبل التحكيم (٤) . في الوقت نفسه يشير خليفة بن خياط إلى أن التحكيم بين على ومعاوية حدث في صفر عام ٣٧ هـ / يوليو عام ٦٥٧م (٥) . وعلى هذا يكون ابن كثير قد أوماً إلى أن هذه الاتفاقية عقدت قبل يوليو عام ٦٥٧ م / صفر عام ٣٧ هـ .

غير أن المؤرخ ثيوفانيس وهو من الذين قالوا أيضا يعقدها خلال فترة النزاع بين على ومعاوية فقد جاء في عرضه لهذه الاتفاقية بعض الاضطراب فقد أورد هذه الاتفاقية ضمن احداث الفترة الممتدة من أول سبتمبر ٦٥٨ م / ٢٥ ربيع الأول عام ٣٨ هـ - حتى ٣١ أغسطس عام ٦٥٩ م / ٦ ربيع الثاني عام ٣٩ هـ في الوقت الذي دون فيه تلك المعاهدة بعد اشارته إلى خروج قوات كل من على ومعاوية للقتال ولحاربة بعضهما فضلا عن اشارته إلى أن هذه الاتفاقية عقدت في نفس العام الذي توفي فيه البابا مارتن الأول (Martin I) (٦٤٩ - ٦٥٦ م / ٢٩ - ٣٦ هـ) . وهكذا اشار ثيوفانيس مرة الى عقدها قبل التحكيم بين على ومعاوية ومرة بعد هذا التحكيم .

(١) عن تلك الانتصارات انظر : فتحى عثمان : المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٢ - ٢٩ .

(٢) Vasiliev , A.A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453) , 2 Vols (٢) , Madison 1958 - 1961 , Vol . I , p. 212 .

(٣) Lot,F., L'art Militaire et les Armee au Moyen Age en Eurpe et dans le Proche Orient , Paris , 1946 , p. 61 .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١١٩ .

(٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ١٩١ .

ولما كانت قوات على بن أبي طالب ومعاوية قد خرجت للقتال في معركة صفين في ذي الحجة عام ٣٦ هـ / مايو ٦٥٧ م (١) ، وكانت وفاة البابا مارتن الأول في عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ (٢) . بذلك يمكن القول أن هذه المعاهدة قد أبرمت في عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ .

أما الراوية الثالثة التي ترى أن المعاهدة بين معاوية بن ابي سفيان والإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني قد عقدت في عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو في عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، فهذا الرأي يحتاج إلى مناقشة خاصة وأننا نعلم جيداً أن الاضطرابات الداخلية التي واجهت معاوية في بداية عهده كادت أن تنتهي ، بعد أن خمدت الفتنة (٣) وبالتالي لم يكن معاوية بحاجة ماسة إلى مهادنة بيزنطية وتهدئة الأمور معها لاسيما أن المصادر لم تشر إلى قيام الإمبراطور البيزنطي بمهاجمة المسلمين في الشام في تلك الفترة كما أشار اليعقوبي (٤) . وبذلك لم تكن ثمة اسباب قاهرة تجعل معاوية بن ابي سفيان يضطر لدفع مبلغ كبير للبيزنطيين خاصة أن هذا الصلح لم يستمر سوى عاماً واحداً حسبما أكد أصحاب هذه الرواية (٥) . كما أن أحوال الدولة العربية الإسلامية في تلك الفترة كانت أكثر استقراراً إذا قورنت بالأوضاع في الدولة البيزنطية. فقد أورد ثيوفانيس أن الإمبراطور البيزنطي قام بنفي البابا مارتن الأول حتى مات في منفاه ، كما قام الإمبراطور قنسطانز الثاني أيضاً عام ٦٦٠ م / ٤٠ هـ بقتل أخيه ثيودور (٦) مما عرضه للكراهية من جانب رجال الدين (٧) ، والسخط من جانب سكان العاصمة البيزنطية (٨) ، هذا فضلاً عن تعرض أملاك الدولة البيزنطية في جنوب إيطاليا للهجمات من

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٩ ، بيروت ١٩٧٩ م ، ج٣ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٢) Ostrogorsky , G. History of the Byzantin state , tr . J. Hussey , Ox ford (٢) , 1956 , p. 106 .

(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٧٢ .

(٤) انظر ماسبق ص ٣ .

(٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ، اليعقوبي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٦) Theophanes , op. cit ., p. 47 .

(٧) Paul the Deacon , History of the Lombards , Ed . W.D. Foulkf , Phhaldelphia , 1907 , p. 235 .

(٨) Ostrogorsky , op . cit ., p. 109 .

قبل اللومباردين (١) . لكل هذه الأسباب ، ترك الامبراطور قنسطانز الثاني العاصمة القسطنطينية ، واتجه إلى صقلية عام ٦٦١ م / ٤١ هـ ، وظل بها حتى تعرض لمؤامرة انتهت بقتله عام ٦٦٨ م / ٤٨ هـ . (٢)

نخلص من العرض السابق أن أحوال الدولة البيزنطية كانت قد اضطرت في الداخل وتعرضت أملاكها في الغرب الأوربي للتهديد من جانب اللومباردين الأمر الذي جعلها لا تمثل خطراً على الدولة الإسلامية وقتذاك ، أو ترغم معاوية على دفع الإتاوه لهم .

وعلى عكس ذلك أشار اليعقوبي إلى أن الامبراطور البيزنطي الذي كان يتلقى الأموال من معاوية قد تغيرت أحواله ، فأرسل الى معاوية يطلب الصلح على أن يدفع لمعاوية أضعاف ما كان يتلاقاه من المسلمين من قبل . فلم يوافق معاوية على طلبه (٣) .

ويفسر اليعقوبي أسباب هذا التحول في موقف البيزنطيين بالإشارة إلى أن الأمور قد استقامت لمعاوية بعد مرور عام واحد على الصلح ، فأصدر معاوية أوامره لأمرء الشام بغزو الأراضي البيزنطية ، " فقام بسر بن أرطاه بغزو أرض الروم عام ٤٣ هـ / ٦٥٣ م " (٤)

واكد كل من المنبجي ، وثيوفانيس ، وابن العبري هذا الأمر فأشاروا في كتاباتهم إلى أن أهل أرمينية استغلوا حالة الاضطراب التي تعاني منها الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك فرفعوا راية العصيان على البيزنطيين (٥) ، وأرسل الحاكم الأرميني سابور Saborios رسولا يدعى سرجي Sergios إلى معاوية في أواخر عام ٦٦٧ هـ / أواخر عام ٤٦ هـ ، يطلب منه العون ضد البيزنطيين . فلما علم قنسطانطين (٦) ابن الإمبراطور قنسطانز الثاني

(١) Paul Deacon , op . cit . , p. 234 .

(٢) Theophanes , op . cit . , pp. 50 - 51 .

(٣) اليعقوبي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٩٣ .

(٤) اليعقوبي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٥) المنبجي : المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٦) هو قنسطانطين الرابع الذي كان يتولى ادارة الحكم في القسطنطينية نيابة عن ابيه الإمبراطور الذي كان وقتذاك في صقلية .

بذلك ، أرسل رسولاً إلى معاوية يدعى أندرو Andrew يطلب عدم تأييد الأرمن في موقفهم ضد البيزنطيين (١) . فلما أستمع معاوية إلى طلب الرسول البيزنطي رد عليه قائلاً : " إن اعطيتمونا كل خراج بلادكم نبقى لكم اسم المملكة وإلا أزعناكم عنها " (٢) . فعاد الرسول البيزنطي دون تحقيق الهدف الذي جاء من أجله (٣) .

وتعتبر الرواية التي أوردها كل من المنبجي وثيوفانيس وابن العبري هي الأرجح لأنها تتفق مع أحوال الدولة البيزنطية وقتذاك . وعلى ضوء ماسبق يمكن القول أن رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبي التي تشير إلى أن معاوية قد عقد الصلح مع البيزنطيين عام ٦٥١ م / ٤١ م أو عام ٦٥٢ م / ٤٢ هـ ، لا تستند إلى دعائم قوية ولا تقدم تبريراً كافياً لقيام معاوية بدفع مائه ألف دينار للبيزنطيين في مثل تلك الظروف ولهذا فإن هذه الرواية - في رأينا - مشكوك في صحتها ولا يمكن قبولها في ضوء ما قدمناه من دلائل .

أما عن الرواية الرابعة التي تشير إلى عقد معاهدة بين معاوية بين أبي سفيان وبين الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، فالملاحظ أن المصادر غير العربية هي التي اتفقت على هذا التاريخ ، بالإضافة إلى إشارة كل من المسعودي والنويري التي يمكن اعتبارها تتفق مع ما أورده تلك المصادر رغم أنهما لم يحددا تاريخاً لتلك المعاهدة (٤) . ونظراً إلى أنه لم يرد في المصادر المتاحة تاريخاً مغايراً لما جاء في المصادر الغربية ، فإننا نوافق بحذر على ما جاء في هذه الرواية .

وفي ضوء ماسبق ، نستطيع القول أن معاوية بن أبي سفيان قد أبرم ثلاث معاهدات مع البيزنطيين الأولى في عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ، والثانية في عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ ، والثالثة في عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

Theophanes , op . cit . , p. 48 . (١)

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ م ، ص ١٠٩ .

Theophanes , op . cit . , p. 351 . (٣)

(٤)

أما عن الرويات التي وردت في المصادر العربية بشأن المعاهدة التي كانت بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) والإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع وابنه الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian 11 (٦٨٥ - ٦٩٥ م / ٦٥ - ٧٥ هـ ، ٧٠٥ - ٧١١ م / ٨٦ - ٩٢ هـ)^(١) فيمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات .

المجموعة الأولى : تتضمن رواية المؤرخ المسعودي . إذ أشار إلى أنه في عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ - ٦٨٦ م وفي الليلة التي أتى فيها لعبد الملك خير مقتل قائده عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان ، جاءه أيضا أن الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني^(٢) " قد نزل المصيصة^(٣) يريد الشام " ، وعلم في الوقت نفسه أن مصعب بن الزبير قد خرج من المدينة المنورة إلى فلسطين ، وأن " عبيد دمشق وأرياشها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل " ، وأن السجناء في دمشق قد فروا من السجن " وخرجوا في مكابره " وأن خيل الأعراب أغارت على حمص ويعليك والبقاع . ولكن عبد الملك واجه تلك المصاعب بالتجملد والثبات ، فبعث بأموال وهدايا إلى الإمبراطور البيزنطي كي يثنيه عن مهاجمة المسلمين في الشام ، كما عقد الهدنة معه.^(٤)

وأهم ما نلاحظه من هذه الرواية ، أن الإمبراطور البيزنطي هاجم المصيصة عام ٦٦ هـ / ٦٨٦ م ، وأن الهدنة التي عقدت بين عبد الملك والبيزنطيين كانت بعد مقتل عبيد الله بن زياد . كما نلاحظ أن رواية المسعودي لم تشر إلى بنود الصلح مع البيزنطيين ولم تحدد مقدار المال الذي أرسله عبد الملك إلى الإمبراطور البيزنطي .

وتتفق رواية اليعقوبي مع رواية المسعودي في الإشارة إلى مهاجمة الإمبراطور البيزنطي للمصيصة ، وأن عبد الملك لم يحاربه " لا اضطراب البلدان ، فصالحه ، وحمل إليه أموالاً كثيرة حتى عاد إلى بلاده " ^(٥) .

(١) ينقسم عهد الإمبراطور جستنيان إلى فترتين .

(٢) يطلق عليه المسعودي اسم " لاوي بن قلفظ " .

(٣) المصيصة : ثغر من ثغور الشام ، وتقع بالقرب من مدينته أنطاكية ، وبينها وبين ساحل البحر اثنا عشر

ميلاً . أنظر : الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، بيروت ١٩٧٥ م ، ص ٥٥٤ .^١

(٤) المسعودي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) اليعقوبي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ .

كما تتفق أيضا روايه السيوطى مع ما أشار إليه المسعودى فى أن عبد الملك واجه - فى الليله التى قتل فيها عبيد الله بن زياد - خطراً آخر ، عندما " إنتقض ملك الروم " ما كان بينه وبين عيد الملك . (١)

ورغم أن اليعقوبى والسيوطى لم يحددا تاريخ الهجوم البيزنطى ، إلا أن إشاره السيوطى تعتبر على جانب كبير من الأهمية ، وتبين أن هناك معاهده سابقه بين المسلمين والإمبراطور البيزنطى ، إنتقضها الأخير عندما هاجم المصيصة . وهكذا تشكلت هذه المجموعه فيما رواه كل من المسعودى واليعقوبى والسيوطى الذين اتفقت رواياتهم فيما يختص بالمهادنة ، وإن اضاف السيوطى أن ثمة هدنة كانت بين الطرفين نقضها الإمبراطور فى السنة المذكوره .

أما المجموعه الثانية : فتضمن الروايات التى تشير إلى مهاجمة الجراجمه للمناطق القريبه من لبنان . إذ أورد ابن الأثير أنه فى عام ٦٩ هـ / ٦٨٨ - ٦٨٩ م خرج " قائد من قواد الضواحي " فى جبل اللكام ، وأتبعه خلق كثير من الجراجمه والعبيد وغيرهم ، واتجهوا إلى لبنان ، فلما فرغ عبد الملك من عمرو بن سعيد ، " أرسل إلى هذا الخارج " الف دينار تدفع كل جمعه ، مما جعل القائد الثائر يركن إلى الهدوء ويكف عن الفساد ، ثم أصدر عبد الملك الأوامر لقائده سحيم بن المهاجر لمواجهة هذا القائد الخارج ومن أعانه من الروم ، ونجح سحيم فى مهمته، ولجأ إلى الحيله فقتل الخارج وأعوانه . (٢)

ونلاحظ من روايه ابن الأثير أن القائد الثائر من قاده منطقته الثغور الإسلاميه وانه تلقى العون والتأييد من جانب البيزنطيين ، وأن هذا الثائر بدأ يعيث الفساد فى عام ٦٩ هـ / ٦٨٨ - ٦٨٩ م .

وتختلف رواية البلاذرى عما أورده ابن الأثير ، إذ يشير إلى أن هذه الأحداث كانت فى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، وأن " خيل الروم " هى التى خرجت إلى جبل اللكام " وعليها قائد من قوادهم " ، وذلك فى الوقت نفسه الذى كان عبد الملك يستعد فيه للزحف إلى

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، القايرة ١٩٧٥ م ، ص ٣٥١ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٣٠٤ .

العراق لمواجهة مصعب بن الزبير . وتتفق الأحداث الباقية من روايه البلاذرى مع ما أورده ابن الأثير بشأن موادة عبد الملك للروم فى جبل لبنان ، ومنحهم ألف دينار كل جمعه مما جعلهم لا يعيشون الفساد . كما تتفق الروايتان فى أن سحيم بم المهاجر قد نجح بالحيله فى القضاء على هذا الخطر (١) .

وبالنسبة للمجموعة الثالثة : فتتضمن الروايات التى تشير إلى مهاجمة البيزنطيين للشام . فيروى كل من الطبرى وابن الاثير ، وابن كثير إلى أنه حدث فى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ أن " ثار الروم واستجاثوا على من بالشام (٢) من المسلمين (٣) ، واستضعفهم لما يرون من الأختلاف بين بنى مروان ، وابن الزبير " (٤) فعقد عبد الملك الصلح مع الإمبراطور البيزنطى (٥) وهادته (٦) على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه ألف دينار خوفا منه على المسلمين (٧) .

أما البلاذرى فيشير إلى أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعدما صالح الروم الذين هاجموا لبنان عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، أرسل كل من حميد بن حرث بن نجد الكلبي ، وكريب بن ابراهه بن الصباح الحميرى (٨) كرسولين إلى الإمبراطور البيزنطى يحملان الهدايا والألطف ، وكتاب من عبد الملك يسأل فيه الإمبراطور الموادة على أن يدفع إتاوه وهو " مال

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٦٠ : أنساب الأشراف ، تحقيق د. إحسان عباس ، ج ٥ ، بيروت ١٩٧٩ ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٣) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٥) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

(٦) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٧) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

(٨) كان من أشراف مصر ، وأحد القادة فى جيش مروان بن الحكم : البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٤٩ : الكندى : الولاة وكتاب القضاء ، بيروت ، ١٩٠٨ م ، ص ٤١ .

يؤديه " ، فقبل الإمبراطور البيزنطي الهدايا ، ووافق على " ما بذل له الخليفة الأموي من الإتاوه ، وأرسل رهائن من البيزنطيين إلى عبد الملك ، فأرسلهم الأخير إلى بعلبك (١) .

- ونلاحظ مما سبق ، أن هذه الجزئية من رواية البلاذري تتفق مع رواية كل من الطبري وابن الأثير وابن كثير في أن عبد الملك بن مروان صالح الإمبراطور البيزنطي عام ٧٠ هـ / ٦٩٠م ، وإن لم يحدد مقدار المال الذي أرسله عبد الملك للإمبراطور ، كما أنه ينفرد عن الروايات السابقة بالإشارة إلى إرسال الإمبراطور البيزنطي رهائن من الروم إلى عبد الملك ضمناً لعدم إنتقاض المعاهدة من جانبه بعد حصوله على أموال الإتاوه .

أما ابن العماد ، فيذكر أن الروم قد ثاروا " وقبوا على المسلمين " لأختلاف كلمتهم ، فصالح عبد الملك الإمبراطور البيزنطي على أن يؤدي له " كل جمعه الف مثقال من الذهب " ، ويشير ابن العماد إلى أن هذا الصلح يعتبر " أول وهن دخل على المسلمين والأسلام " . (٢) وبهذه الرواية اختلف ابن العماد مع الروايات السابقة في مقدار المال الذي كان عبد الملك يرسله إلى الإمبراطور البيزنطي كل أسبوع .

أما عن قول ابن العماد بأن الصلح كان أول وهن دخل على الأسلام والمسلمين . فنرى أن هذا الكلام لا تملبه الحكمة وفيه تجاوز كبير ، ويختلف أيضا مع ما قال به الفقهاء . إذ يشير ابن الحسن الشيباني إلى قول الأمام أبي حنيفة بأنه " لا بأس بالموادعة بين المسلمين وبين أهل دار الحرب أن لم يكن بالمسلمين قدرة عليهم ، ولا بأس من إعطاء المال إليهم حتى لا يظهروا على نفوس المسلمين " (٣) . وفي ضوء هذا فان مصالحه عبد الملك للبيزنطيين حسبما أشار مؤرخي تلك المجموعة لا يمثل نوعاً من الوهن ولا يعتبر دليلاً على الدعة وإيثار العاقبه ، كما أن عبد الملك ليس أول من صالح البيزنطيين وهادنهم فقد سبق وأن أشرنا في الصفحات السابقة إلى قيام معاويه بعقد صلح مع البيزنطيين ودفع لهم أموالاً كثيرة .

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ، ج٥ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج٨ في ٤ مجلدات ، بيروت ، دار الأفاق الجديد ،

(د . ت) ، ج١ ، ص ٧٧ .

(٣) الشيباني : المصدر السابق ، ص ١٦٨٩ ، ١٩٩٢ .

وبالنسبة للمجموعة الرابعة : وتتضمن الروايات التي تشير إلى المفاوضات والمراسلات بين عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني . فيروى محمد بن سعد أن " صاحب الروم " كتب إلى عبد الملك يهدده بأنه قد جمع له جموعاً كثيرة ، فكتب إليه عبد الملك يقول : " اولا تدرى أن لله فى كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة فى كل لحظة ثلاثمائة وستون قضيه . فلعله يكتفيناك فى قضيه من قضاياه " (١) .

أما ابن قتيبة فيشير إلى أنه عندما انشغل عبد الملك بحاربة مصعب بن الزبير أجتجع " وجوه الروم " وأشاروا على الإمبراطور بغزو الأراضى الإسلامية بعد أن واتتهم الفرصه بأنشغال المسلمين بعضهم ببعض فنهاهم الإمبراطور عن ذلك ، وبين لهم أن المسلمين فى وقت الخطر يمكن أن يطرحوا نزاعهم جانباً ، ويتحدون لمواجهه الأخطار (٢) .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد رواية تنشاه مع رواية ابن سعد فى أن الإمبراطور البيزنطى كتب إلى عبد الملك بن مروان يهدده بأنه سوف يغزوه بمائة الف من الجنود . فكتب إليه عبد الملك رساله تنفق فى دلالتها (٣) مع اشار إليه ابن سعد .

كما أورد المسعودى رواية تتفق مع الروايات السابقة بشأن مكاتبة عبد الملك للإمبراطور البيزنطى ، ولكنه يتفرد بالإشارة إلى أن الرسل الذين أرسلهم معاويه إلى الإمبراطور البيزنطى، كانوا لا يكتفون فتره طويلة فى العاصمة البيزنطية فيما عدا رسولا واحداً (٤) .

تلك كانت أهم الروايات التى تضمنتها المصادر العربية بشأن المعاهده بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطى ، وأهم ما نلحظه من هذه الروايات العربية أنها حددت تاريخ هذه المعاهده فى الفتره ما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠ م .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٨ ج ، بيروت ١٩٥٧ - ١٩٨٠ ، ٥ ج ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ٢ ج ، التاهره ١٩٢٥ م ، ١ ج ، ص ١١٦ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٦ ج + فهرس ، بيروت ١٩٥٣ - ٢٩٦٢ م ، ٢ ج ، ص ٢٠٣ .

(٤) المسعودى : المصدر السابق ، ٣ ج ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

أما عن المصادر البيزنطية ، فيشير المؤرخ ثيوفانيس إلى عقد معاهدة بين عبد الملك والإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع في الفترة الممتدة من أول سبتمبر عام ٦٨٤ م / ١٤ المحرم عام ٦٥ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٨٥ هـ / ٢٤ المحرم ٦٦ هـ ويقول : " في الوقت نفسه الذي تفشى فيه الوباء ، وعمت المجاعة في الشام ، ووصل فيه الوباء إلى عنفوانه وقمة فتكه ، قام المردة بمهاجمة لبنان " عندئذ أرسل عبد الملك سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع يطلب منه تجديد المعاهدة التي سبق أن عقدها مع معاوية (١) على أن يدفع عبد الملك للبيزنطيين ثلاثمائة وخمسة وستين ألف نوميسماتا ، ويرسل إليهم ثلاثمائة وخمسة وستين حصانا أصيلاً ، ويطلق سراح ثلاثمائة وخمسة وستين أسيراً من البيزنطيين (٢) .

ويتفق ما أورده كل من ليوجراماتيكيوس (٣) ، وموناخوس همتولس من بنود هذه المعاهدة مع رواية ثيوفانيس ، على الرغم من أنهما لم يحدداً تاريخ هذه المعاهدة . ويشير موناخوس إلى أن أمد هذه المعاهدة كان عشر سنوات ، وأن الإمبراطور البيزنطي تعهد بإيقاف هجمات المردة على الأراضي الإسلامية (٤) .

ويشير جوزيف جنتريوس إلى أن هذه المعاهدة كانت في السابع من يوليو عام ٦٨٥ م / الثامن والعشرين من ذي القعدة عام ٦٥ هـ ، وأن أمد هذه المعاهدة كان ثلاث سنوات (٥) .

أما عن المعاهدة الثانية ، فيشير ثيوفانيس إلى أنها كانت في الفترة من أول سبتمبر عام ٦٨٦ م / ٥ صفر عام ٦٧ هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٨٧ م / ١٥ صفر عام ٦٨ هـ ، عندما أرسل عبد الملك بن مروان سفارة إلى الإمبراطور جستنيان الثاني لعقد اتفاقيه سلام بينهما تنحصر بنودها في أن يقوم الإمبراطور البيزنطي بترحيل قوات المردة من لبنان بعد إيقاف هجماتهم ، وفي مقابل ذلك يدفع عبد الملك للبيزنطيين كل يوم ألف نوميسماتا ويرسل

(١) انظر ما سبق ، ص ٤

Theophanes , op. cit ., p. 59 . (٢)

Leo Grammaticus , op. cit ., p. 162 . (٣)

Hamartolus , op . cit . col . 898 . (٤)

Genesis , op . cit ., col . 31 . (٥)

لهم حصاناً أصيلاً كل يوم ، ويطلق سراح أسير واحد منهم كل يوم أيضا . كما يقوم الجانيان الإسلامي والبيزنطي بأقتسام الفرائب التي تقيى سن قبرص وأرمينية وأيبيريا (١) .

وبعد أن أستمع الإمبراطور لعرض السفاره الإسلاميه ، ووافق عليه ، أرسل مندوباً يدعى بولس Poul إلى عبد الملك لتدوين بنود معاهدة السلام بينهما وتذيلها بشهادة الشهود . وعاد المندوب الإمبراطورى بعد أن أستقبل وودع بكثير من الحفاوة والتكريم (٢) .

ويتفق المؤرخان كدرينوس وزوناراس مع ما أورده ثيوفانيس بشأن بنود هذه المعاهدة ، ولكنهما يختلفان معه فى تحديد تاريخها ، فيشيران إلى انها كانت فى السنة الأولى من حكم الإمبراطور جستنيان (٣) اى فى عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ .

أما المؤرخان ليوجراماتيكيوس وموناخوس همرتولس فيشيران إلى أن الإمبراطور جستنيان الثانى هو الذى أرسل وقدماً إلى عبد الملك بن مروان لتأكيد اتفاقية السلام التى عقدت مع أبيه الإمبراطور قنسطنطين الرابع (٤) .

واكتفى المؤرخ نقفور بالإشارة إلى أن جستنيان الثانى قد نقض فى عام ٦٨٨ م / ٦٨-٦٩ هـ " المعاهدة التى عقدها والده مع العرب " (٥) .

(١) أيبيريا : مملكه مسيحيه تقع فى منطقه جبال القوقاز بين البحرين الأسود وقروين .

أنظر : وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الإمبراطور البيزنطيه والدوله الأمويه حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الاسكندرية ١٩٨١ ، ص٤٢ ، ح (٣) .

Theophanes , op . cit . , p. 61 . (٢)

ويلاحظ حرص عبد الملك على أن يجرى دفع هذه الإتاوة مجزأة وعلى مدى الأيام ضمانا لاستمرار سريانها فى المدة المتفق عليها خوف من أن ينقضها الإمبراطور إذا حصل على الإتاوة دفعة واحدة وقبل انقضاء امد الهدنة .

Cedrenus , op . cit . , col . 642 ; Zonaras , op . cit . , p. 321 . (٣)

Leo Grammaticus , op . cit . , p. /163 ; Hamartolus , op . cit . , col . 898 (٤)

Nicephrus , op . cit . , col . 936 . (٥)

ويتفق المؤرخ جوزيف جنزبوس مع المؤرخ نقفور في أن هذه المعاهدة كانت في عام ٦٨٨ م / ٦٨ - ٦٩ هـ ، ويشير إلى أن أمدها كان عشر سنوات ، ثم يبدي تردده فيما يتعلق بالبنود الخاصة بالماله والجياذ والأسرى ويقول كانت : تدفع كل يوم ، وقيل كل اسبوع " (١)

وفي ضوء ما سبق يتضح أن هناك شبه اتفاق بين المصادر البيزنطية في تحديد تاريخ اتفاقية السلام بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ . بينما اختلفت روايات المصادر البيزنطية في تحديد تاريخ المعاهدة التي عقدت بين العاهل الأموي (عبد الملك) والعاهل البيزنطي (جستنيان الثاني) ، وجعلته ينحصر في الفترة ما بين عامي ٦٨٥ - ٦٨٨ م / ٦٥ - ٦٩ هـ .

أما عن المصادر السريانية فتتفق رواية ميخائيل السرياني مع الروايات البيزنطية التي تحدد المعاهدة الأولى بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، ويرى ان أمدها كان عشر سنوات كما تتفق أيضا مع تلك الروايات في تحديد عام ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ تاريخا للمعاهدة بين عبد الملك والإمبراطور جستنيان الثاني ، وتشير إلى أن أمده هذه المعاهدة كان أيضا عشر سنوات . وتتفق البنود التي أوردها ميخائيل السرياني للمعاهدة الثانية مع ما أورده ثيوفانيس (٢) .

أما ابن العبري فيتفرد بالإشارة إلى أن الإمبراطور " يوسطنيانوس " (٣) استجاش على من بالشام من المسلمين " عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، فصالحه عبد الملك على أن يؤدي إليه كل جمعه الف دينار ، " وقيل كل يوم الف دينار وقرساً وملوكا " (٤) .

ومن المصادر اللاتينية ، يشير بولس الشماس Paul the Deacon إلى أن الإمبراطور جستنيان الثاني عقد اتفاقية سلام مع المسلمين " تشمل البر والبحر " (٥) . ولم يحدد بولس

(١) Genesisius , op . cit . , col . 31 .

(٢) Michel le Syrien ; op . cit . , Vol . 11 , p. 469 .

(٣) المقصود جستنيان الثاني .

(٤) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٥) Paul the Deacon , op . cit . , pp. 258 - 259 .

الشماس تاريخ وينود تلك الاتفاقية .

اما المنبجى ، فيشير إشاره عابره إلى المعاهدة بين عهد الملك والإمبراطور تنسطنطين الرابع فى العام الذى تفشى فيه الوباء ، ويقول : " وفيه صالح عهد الملك الروم " . كما يتفق المنبجى مع ميخائيل السريانى على أن أمد المعاهدة بين عهد الملك وجستينيان الثانى كان عشر سنوات ، وعلى الرغم من أنه لم يحدد تاريخاً لتلك المعاهدة ، واكتفى بالإشاره إلى أنها كانت فى عهد الإمبراطور جستينيان إلا أن البنود التى أوردها لهذه المعاهدة تتفق مع ما أورده ثيوفانىس ، ولكنه بنفرد بالإشاره إلى أن هذه البنود الزمت الإمبراطور " أن يخرج الروم فى جبل لبنان ويردهم إلى بلد الروم " ، وعلى هذا فإن المنبجى يعتبر الجراجمة فى لبنان من الروم . كما أنه يكتفى بالإشاره إلى أقتسام المسلمين والبيزنطيين جزيره قبرص (١) ، ولم يقرن بهذا الإقتسام كل من أرمينيه وأيبيريا حسبما أشارت بعض المصادر البيزنطيه .

أما المؤرخ الأرمينى جيوفوند Ghevond فيشير إلى أن أقتسام أرمينيه كان من بين بنود المعاهدة بين عهد الملك بن مروان ، والإمبراطور جستينيان الثانى عام ٦٨٩ م / ٦٨ - ٦٩هـ (٢)

وفى ضوء العرض السابق للرويات العربية وغير العربية عن المعاهدات بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد عهد الملك بن مروان نلاحظ أن الرويات العربية حددت تاريخ هذه المعاهدات فيما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠ م ، كما حددتها الرويات غير العربية فى الفتره نفسها . كما نلاحظ أن الرويات غير العربية أشارت إلى أن عهد الملك عقد معاهدتين مع البيزنطيين : الأولى عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، والثانية فيما بين عامى ٦٨٥ - ٦٩٠ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، بينما تعددت الرويات العربية فى هذا الشأن .

وإذا أنتقلنا من التعميم إلى التخصيص ، فى محاوله لمقارنة هذه الرويات بعضها ببعض . نجد أن ثمة تشابه بين الرواية البيزنطيه (٣) ، وروايه المجموعه الأولى من المؤرخين

(١) المنبجى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢) Ghevond , Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en Armenie , Tr . G.V. Chahnazarian Paris , 1856 , pp. 65 - 97 .

(٣) انظر ما سبق ص ١٧ - ١٨ .

المسلمين ^(١) بشأن المعاهدة الأولى التي عقدت بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع فى ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، على الرغم من أن المصادر البيزنطية قد أغفلت الإشارة إلى أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع قد هاجم المصيصة . كما يمكن أن نفسر إشاره السيوطى بأن الإمبراطور قد انتقض ما كان بينه وبين عبد الملك بالهجوم على المصيصة ، بأن المؤرخ السيوطى كان يعنى بهذه الإشارة المعاهدة التى سبق أن عقدها معاوية مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، والتى كان أمدها ثلاثين عاماً ، وعلى ذلك كانت المعاهدة سارية فى عهد عبد الملك بن مروان ، وانتقضها الإمبراطور قنسطنطين الرابع عندما هاجم المصيصة . فاضطر عبد الملك إلى عقد المعاهدة معه ليتفرغ لمواجهة ابن الزبير .

ويشير ثيوفانيس إلى أن المعاهدة التى عقدت بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع كانت بمثابة تجديدٍ للمعاهدة التى سبق أن عقدها الأخير مع معاوية وبالبنود نفسها . ولكن إذا أمعنا النظر فى بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك - حسبما أوردتها المصادر البيزنطية ^(٢) - نجد أن الاختلاف واضح للغاية بين بنود المعاهدين ^(٣) . كما يجعلنا نستنتج أن عبد الملك عقد مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع معاهدة أخرى ، ولها بنود مختلفة عن معاهدة معاوية مع البيزنطيين .

أما عن تاريخ هذه المعاهدة ، فتتفق روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية على أنه كان بعد مقتل عبيد الله بن زياد ^(٤) ، وكان مقتل ابن زياد حسبما اشار خليفه بن خياط فى عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ - ٦٨٦ هـ ^(٥) ، ويرى ثيوفانيس أنها كانت فيما بين عامى ٦٨٤ -

(١) انظر ما سبق ص ١٢ - ١٣ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٣) عن المعاهدة بين معاوية والإمبراطور قنسطنطين الرابع انظر ما سبق ص ٤ .

(٤) انظر بما سبق ، ص ١٧ - ١٨ .

(٥) خليفه بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

٦٨٥ م (١) / ٦٥ - ٦٦ هـ ، ويشير جنتزيرس إلى أنها في ٧ يوليو عام ٦٨٥ (٢) / ٢٨ ذى القعدة عام ٦٥ هـ ، وعلى هذا تكوّن بدايه الفتره التي حددها ثيوفانيس ، والتاريخ الذي أورده جنتزيرس قبل مقتل ابن زياد ، وليس بعده حسبما أشارت المصادر الإسلامية . وينبغي أن نلاحظ أيضا أن هذه المعاهدة كانت بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور قنسطنطين الرابع كما أشارت إلى ذلك الرواية البيزنطية ، ومن المسلم به أن يكون عقد هذه المعاهدة بعد تولي عبد الملك الحاكم في رمضان عام ٦٥ هـ . أبريل عام ٦٨٥ (٣) ، وقبل وفاة الإمبراطور قنسطنطين الرابع في سبتمبر عام ٦٨٥ م / صفر عام ٦٦ هـ (٤) وعلى هذا يمكن القول أن تاريخ هذه المعاهدة كان في الفتره بين أبريل وسبتمبر ٦٨٥ م / (رمضان عام ٦٥ - صفر عام ٦٦ هـ) ولما كان هذا التحديد يتفق مع التاريخ الذي اشارت إليه روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية . نرى أن الروايتين البيزنطية والعربية قد إتفقتا حول تاريخ هذه المعاهدة . أما عن أسباب هذه المعاهدة وبنودها ، والشخصية التي عقد معها عبد الملك هذه الاتفاقية وأمدتها، فنلاحظ :

أولاً : فيما يتعلق بأسباب هذه المعاهدة اتفقت المصادر البيزنطية على أن هجوم المرده على لبنان كان من أهم الأسباب التي دفعت عبد الملك إلى عقد هذه الهدنة مع الإمبراطور قنسطنطين (٥) بينما تشير رواية المجموعة الأولى (٦) من المصادر العربية إلى أن هجوم الإمبراطور على المصيصة كان هو الدافع لعقد المعاهدة . واتفقت روايه المجموعة الثانية من المصادر العربية مع الرواية البيزنطية في أن هجوم الجراجمه على لبنان هو الذي دفع عبد الملك إلى مصالحتهم .

(١) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٣) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٤) Hamartolus , op . cit . , Col . 898 .

(٥) انظر ما سبق ص ١٧ .

(٦) انظر ما سبق ، ص ١٣ .

ثانيا : أوجزت المصادر البيزنطية بنود هذه المعاهدة ، إذ تعهد الإمبراطور البيزنطى بإيقاف هجمات المردة على لبنان ، وهى إشارة واضحة إلى أن الإمبراطور كان هو المحرض على تلك الهجمات . مقابل أن يدفع عبد الملك ثلاثمائة وخمسة وستين ألف نوميسماتا ، ويرسل ثلاثمائة وخمسة وستين حصاناً أصيلاً ، ويطلق سراح ثلاثمائة وخمسة وستين أسيراً بيزنطياً كل عام . وهكذا إذا جرى تقسيم ماتعهد بإرساله عبد الملك على أيام السنة لكان الناتج الف نوميسماتا ، وحصانا ، وأسيراً كل يوم .

وإذا أمعنا النظر فى هذا الناتج ، نجد أنه يتفق مع ما جاء فى البنود التى أشارت إليها بعض المصادر البيزنطية عندما تحدثت عن المعاهدة التى عقدها فيما بعد عبد الملك بن مروان مع جستنيان الثانى ^(١) ، وهذا يعنى بعبارة واضحة أن المصادر البيزنطية أشارت إلى البنود نفسها فى المعاهدتين ، فأشارت إلى أنها تدفع كل عام فى المعاهدة الأولى ، وكل يوم فى المعاهدة الثانية .

وفى الوقت نفسه نجد هذا التكرار فى روايات المصادر العربية . فتشير روايه المجموعة الثانية إلى أن عبد الملك صالح الجراجمة فيما بين عامى ٦٩ - ٧٠ هـ / ٦٨٨ - ٦٩٠ م على أن يدفع لهم كل جمعه ألف دينار ^(٢) ، وفى الوقت نفسه تشير رواية المجموعة الثالثة من المصادر العربية إلى أن عبد الملك صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه ألف دينار ^(٣) .

هذا التكرار هو الذى جعل كل من جنزيروس وابن العبرى يتأرجحان فى الإشارة إلى هذه البنود ، فذكرا أنها تدفع " كل يوم أو كل جمعه " ^(٤) .

(١) أنظر ما سبق ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) أنظر ما سبق ، ص ١٣ .

(٣) أنظر ما سبق ، ص ١٤ .

(٤) المتبجى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

ولقد حسم المنبجى الأختلاف بين الرواية العربية ، والرواية البيزنطية عندما أشار إلى أن بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك مع جستنيان الثانى كانت " تدفع كل يوم عرضاً عن إخراج الروم الذين كانوا فى جبل لبنان " (١) .

ونحيل إلى ترجيح رواية المنبجى ، لأن إجلاء الجراجمه من المناطق التى عاشوا فيها فتره طويله (٢) ، ونقلهم بكل أمتعتهم إلى مناطق أخرى كان يحتاج إلى أموال كثيره تعهد بدفعها عبد الملك حتى يكسر شوكتهم ، ويهدم هذا السور النحاسى ، حسبما أشار المؤرخ ثيوفانيس (٣) .

وفى ضوء ما سبق نرى أن رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية هى أقرب إلى الحقيقة ، وهى التى أشارت إلى أن ما تعهد به عبد الملك طبقاً لشروط المعاهده التى عقدها مع البيزنطيين - عام ٦٥٨ م / ٦٦ هـ - كانت تدفع كل جمعه .

وترجع أيضاً أن هذه البنود كانت تنص على أن يدفع الف دينار رومى للبيزنطيين ، ويرسل حصانا أصيلاً لهم ، ويطلق سراح أسير واحد من البيزنطيين .

ثالثاً : تتفق روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية مع الرواية البيزنطية فى أن عبد الملك قد صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ هـ . فى الوقت الذى اشارت فيه رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية إلى أن الصلح كان مع الروم والجراجمه فى لبنان ، ولا يمثل ذلك أختلافاً جوهرياً مع رواية المجموعة الأولى طالما أن الإمبراطور هو المحرض الأساسى للروم والجراجمه فى لبنان كما سبق أن أشرنا .

رابعاً : لم تشر المصادر العربية إلى أمد المعاهده التى عقدها عبد الملك مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٧٦ هـ . بينما أشار المؤرخ جنزيبوس إلى أن أمدها كان ثلاث

(١) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

Theophanes , op . cit . , p . 62 .

(٢)

سنوات (١) ، ويرى المؤرخ ميخائيل السرياني (٢) أنها كانت لمدة عشر سنوات . ولا نرى أن هذا يمثل أختلافاً كبيراً أيضاً ، فربما كان أمد المعاهدة عشر سنوات ولكن الإمبراطور نقضها بعد مرور ثلاث سنوات من توقيعها .

وهكذا ، يمكن القول أن ثمة تشابه بين الرواية البيزنطية وكل من رواه المجموعة الأولى والمجموعة الثانية من المصادر العربية بشأن المعاهدة التي عقدت بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٦ هـ .

أما عن المعاهدة التي عقدها عبد الملك بن مروان والإمبراطور جستنيان الثاني ، فقد اختلفت الروايات حول تاريخها ، فيشير كل من كدريوس وزوناراس إلى أنها كانت في عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ ، ويذكر ثيوفانيس أنها كانت فيما بين عامي ٦٨٦ - ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ ، ويرى ميخائيل السرياني أنها عقدت في عام ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ ، بينما أشار كل من جنزيوس ونقفور إلى أنها كانت في عام ٦٨٨ م / ٦٨ - ٦٩ هـ ، ويرى جيوفوند أنها في عام ٦٨٩ م / ٦٩ - ٧٠ هـ ، ويشير كل من البلاذري ، والطبري ، وابن الأثير ، وابن العبري إلى أنها جرت في عام ٧٠ هـ / ٦٨٠ - ٦٩٠ م ، أما ليو جراماتيكوس وموناخوس وولس الشماس والمنبجي فقد أشاروا إلى هذه المعاهدة دون تحديد تاريخ لها .

ويمكن أن نستبعد رأي كل من كدريوس وزوناراس لأنهما يتفقان مع تاريخ المعاهدة التي سبقت الإشارة إليها بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع . ونلاحظ من رواه ثيوفانيس أن الاتفاق التهائي وبدايه تنفيذ المعاهدة كان في العام التالي لأرسال عبد الملك الرسل إلى الإمبراطور البيزنطي للتشاور على عقد أتفاقيه السلام بينهما (٣) . ونلاحظ أيضاً أن هناك تشابه بين الروايه الأرمينية لجيوفوند ، والسريانية لابن العبري ، والعربية للبلاذري ، والطبري ،

Genesis , op . cit . , Col . 31 . (١)

Michel le Syrien , op . cit . , Vol . 11 , p. 469 . (٢)

Theophanes , op . cit . , pp. 61 - 62 . (٣)

وابن الاثير فى تحديد عام ٦٨٩ م / ٧٠ هـ وإذا أعتبرنا أن هذا العام يمثل تاريخ الاتفاق النهائي على هذه المعاهدة ، فيكون العام السابق - حسبما أشار ثيوفانيس - هو العام الذى بدأ فيه الرسل فى التفاوض بشأن المعاهدة ، ونضم بالتالى رأى كل من جنزبوس ونقفور إلى اتفاق هؤلاء المؤرخين .

وعلى هذا يمكن القول أن عبد الملك بن مروان أرسل سفاره إلى الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى للتفاوض على عقد الصلح بينهما فى أواخر عام ٦٨٨ م / أوائل عام ٦٩ هـ ، وأن الجانبين تبادلأ إرسال السفراء ، وأستمرت المفاوضات إلى أن تم توقيع المعاهدة بينهما فى منتصف ٦٨٩ م / أوائل عام ٧٠ هـ .

أما عن بنود تلك المعاهدة ، وحسبما اتفقت المصادر غير العربية ، فتنحصر فى أن يدفع عبد الملك للبيزنطيين الف دينار رومى ، ويرسل إليهم حصانا أصيلاً ، ويطلق سراح أسير منهم كل يوم ، ويقتسم الجانبان الأسلامى والبيزنطى الضرائب التى تجبى من قبرص وأرمينية وأيبيريا ، على أن يقوم الإمبراطور البيزنطى بترحيل الجواجهه من الشام إلى الأراضى البيزنطيه ، وأن يكون أمد هذه المعاهدة عشر سنوات .

ونستنتج من العرض السابق ، أن المسلمين عقدوا مع البيزنطيين خمس معاهدات سلام فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى / الثلث الثانى من القرن الأول الهجرى ، عقد معاويه منها ثلاث معاهدات : الأولى مع الإمبراطور قنسطانز الثانى عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ، وكان معاويه والياً على الشام حينذاك ، والثانية مع الإمبراطور نفسه فى عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ اثناء النزاع على بن ابى طالب ، والثالثة مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع فى عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، بعد أن صارت له الخلاقه . أما عبد الملك بن مروان فقد عقد معاهدتين مع البيزنطيين الأولى عام ٦٨٥ م / ٦٦ هـ مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع ، والثانية عام ٦٨٩ م / ٧٠ هـ مع الإمبراطور جستنيان الثانى .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً ، المصادر العربية والمحرية

أبن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) عز الدين ابو الحسن على بن ابى الكرم محمد بن عبد الكرم بن عبد الواحد الشيبانى :

" الكامل فى التاريخ) ٩ ج ، بيروت ١٩٧٩ م .

ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ - ٨٤٥ م) محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الراقدى :

" الطبقات الكبرى " ٨ ج ، بيروت ١٩٥٧ م .

ابن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ . ٨٣٩ م) ابو عبيد القاسم :

" الاموال " مصر (د . ت) .

ابن الطقطقى (ت ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ - ١٣١١ م) محمد بن على بن طباطبا :

" الفخرى فى الآداب السلطانية " مصر (د . ت) .

ابن العبرى (ت ٦٨٥ م / ١٢٨٦ م) ابو الفرج غريغوريوس بن أهرون الطيب :

" تاريخ مختصر الدول " بيروت (د . ت) .

ابن العماد (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٩ م) ابو الفلاح عبد الحمى بن على بن محمد :

" شذرات الذهب فى أخبار من ذهب " ٨ ج ، بيروت (د . ت) .

ابن عبد ريد (ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) ابو عمر أحمد بن محمد القرطبى الأندلسى :

" العقد الفريد " ١٦ ج + فهرس ، بيروت ١٩٥٣ - ١٩٦٢ .

ابن قتبية (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) ابو محمد بن عبد الله بن مسلم

" الأمامه والسياسة ٢ ج (فى مجلد احد) ، مصر ١٩٠٤ م .

" عيون الأخبار " ٢ ج ، القاهرة ١٩٢٥ .

- ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين ابو الفد اسماعيل بن عمر :
- " البداية والنهاية " ١٣ ج ، بيروت ١٩٧٤ م .
- البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ابو الحسن احمد بن رحيى بن جابر البغدادي :
- " أنساب الأشراف " تحقيق د . أحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩ م
- " فتوح البلدان " ليدن ١٨٦٦ م .
- الحميري (ت أواخر القرن التاسع الهجرى / أو اخر القن الخامس عشر الميلادى) ابو عبد الله محمد بن عبد المتعم :
- " كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار " تحقيق د . أحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ م .
- خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) ابو عمرو خليفة بن خياط بن ابى هبيرة العسفرى :
- " تاريخ خليفة بن خياط " تحقيق د . أكرم ضياء العمرى ، الرياض ١٩٨٥ م .
- الدينورى (ت ٨٨٢ هـ / ١٨٩٥ م) ابو حنيفة احمد بن داود :
- " كتاب الأخبار الطوال " بغداد ١٩٥٩ م .
- السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر :
- " تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين " تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٥ م .
- الشيبانى (ت ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٠٩٧ م) محمد بن الحسن الشيبانى :
- " شرح كتاب السير الكبير " تحقيق عبد العزيز احمد ، القاهرة ١٩٧٢ م .
- الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) ابو جعفر محمد بن جرير :
- " تاريخ الأمم والملوك " ١٠ ج ، بيروت ١٩٧٩ م .
- الكندى (ت ٣٥٠ م / ٩٦١ م) ابو عمر محمد بن يوسف المصرى :
- " كتاب الولاة وكتاب القضاة " بيروت ١٩٠٨ م .

المسعودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) ابى الحسن على بن الحسين بن على :

" مروج الذهب ومعادن الجواهر " ٤ ج ، بيروت ١٩٨٣ م .

المنبجى (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أغابىوس بن قسطنطين

المنبجى :

" المنتخب من تاريخ المنبجى " انتخابه وحققه أ . د عمر عبد السلام تدمرى ، بيروت

١٩٨٦ م .

التويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب :

" نهاية الأرب فى فنون الآدب " ٢٧ ج ، القاهرة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م .

اليعقوبى (ت بعد عام ٢٩٢ هـ / بعد عام ٩٠٤ م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن

وهب الكاتب لمعروف بابن واضح الكاتب :

" تاريخ اليعقوبى " ٣ ج ، النجف ١٣٥٨ هـ .

ثانيا ، المصادر الأجنبية

- Cedrenus , G., Historiarum Compendium , Ed . Migne Patrologia
Graeca , Tome Cxx1 - Cxx11, Paris 1964 - 1894 .
- Genesisius , J. Historia De Rebus Constantinopolitanis , Ed. Migne
Patrologia Graeca ,. Tome C1x , Paris , 1963 .
- Georgius Monachus Hamartolus , Chronicon , Ed.Migne Patrologia
Graeca ,Tome Cx , Paris , 1863 .
- Ghevond , Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en
Armenie , Tr. G.V. Chahnazarian , Paris , 1856 .
- Leo Grammaticus , Chronographia ; Ed . Corpus Scriptorum
Historiae Byzantinae , Bonn , 1892 .
- Michel le Syrien , Chronique , Textet Syriaque et Trad . Fr . Par
Chabot , 4vols , Paris , 1899 .
- Nicephrus Patriarchae , Breviarum Historicum , Ed . Migne
Patrologia Graeca , Tome C, Paris , 1860 .
- Paul the Deacon , History of the Lombards , Tr . By , W.D. Faulke ,
Phhaldelphia , 1907 .
- Sebeos , Histoire d'Heraclius , Trad . F. par, F. Macler, Paris , 1904 .
- Theophanes , The Chronicle of Theophanes , (A.D. 602 - 813) Tr. by,
H. Turthedove, U.S.A., Pensylvania , 1982 .
- Zoharas , J., Epitome Historiarum , Ed . M.Pender, 3 Vols , Bonne ,
1841 - 1892 .

ثالثاً ، المراجع العربية

فتحي عثمان (دكتور) :

" الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضارى " ج ٢ ، القاهرة
١٩٦٦ .

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

" التاريخ السياسى للدولة العربية " ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧٩ م

محمود سعيد عمران (دكتور) :

" ادارة الإمبراطورية البيزنطية " بيروت ، ١٩٨٠ م .

وسام عبد العزيز فرج (دكتور) :

" العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن السابع
الميلادى " الاسكندرية ، ١٩٨١ م .

رابعاً ، المراجع الأجنبية

Lot, F. L'art Militaire et les Armees , Paris , 1946 .

Ostrogorsky , G., History of the Byzantin State , Tr., J.Hussey ,
Oxford , 1956 .

Vasiliev , A.A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453) ,
2 Vols , Madisom , 1958 - 196 .

الفصل الثالث

دراسة

الصراع على عرش مملكة بيت المقدس.

ومقتل كونراد دي مونتفرات

(١١٨٨-١١٩٢م / ٥٨٤-٥٨٨هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر النزاع على تاج مملكة بيت المقدس الصليبية من أهم القضايا التي شغلت رأى العام الصليبي في المشرق الإسلامى خلال الفترة الممتدة من عام ١١٨٨م/٥٨٤هـ حتى عام ١١٩٢م/٥٨٨هـ.

بدأ هذا النزاع بالتنافس بين إثنين من زعماء الصليبيين وهما جاي دى لوزجنان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس (الأسمى)، والمركيز كونراد دى مونتفرات Conrad de Montferrat حاكم مدينة صور، ثم مالبت أن إتسعت دائرته، وإنغمس فيه بعض طوائف الصليبيين من ملوك ونبلاء وجماعات تجارية وأخرى رهبانية عسكرية وأصبح يشغل حيزاً كبيراً فى السياسة الصليبية فى بلاد الشام مما كان له أكبر الأثر على الصراع الصليبي الإسلامى خلال هذه الفترة.

وما يدعو للدهشة، أنه عندما بدأ هذا الصراع لم تكن مملكة بيت المقدس تخضع للسيادة الصليبية، بعد أن أنكسرت شوكة الفرنج فى معركة حطين عام ١١٨٧م-٥٨٣هـ وضاعت هيبتهم، وتمزقت أوصال المملكة، ونجح المسلمون فى استعادة معظم إراضيها^(١) وقد اهتمت المصادر الإسلامية والغربية بهذا الصراع، وتتبعت مراحلته منذ بدايته حتى مقتل كونراد، فمن المؤرخين المسلمين الذين أشاروا إلى هذا النزاع: عماد الدين الكاتب^(٢)، وابن

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، ج٢، القاهرة ١٩٦٣، ص٨٠٩-٨٢٣، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العربى، ج٣، بيروت ١٩٦٧-١٩٦٩، ج٣، ص٧٣٩-٧٥٤.

(٢) عماد الدين الكاتب: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح، القاهرة ١٩٦٥م، ص ٢٨٩-٥٩٠.

الأثير^(١)، وابن شداد^(٢)، وأبو شامة^(٣)، وابن واصل^(٤)، وأبو الفدا^(٥). ومن ناحية أخرى اهتم المؤرخون الغربيون بهذه القضية أيضاً منهم : صاحب كتاب تاريخ هرقل^(٦) وارنول^(٧)، وجوفرى دى فينسوف^(٨)، وإمبرواز^(٩)، وامادى^(١٠)، وروجر الهوفدنى^(١١)، ومتى الوستمستري^(١٢)، ورالف^(١٣).

-
- (١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٩، بيروت ١٩٧٨م، ج٩، ص ١٨٧-٢١٩.
- (٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د.جمال الدين الشيال، الاسكندرية ١٩٦٤، ص ٩٨-٣٨٢.
- (٣) أبو شامة : كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين التورية والصلاحية، ج٢ فى مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٧-١١٢٨هـ، ص ١٨٣-١٩٦.
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق وتعليق د.جمال الدين الشيال، ج٣، القاهرة ١٩٥٧، ج٢، ص ٢٨٤-٣٨٢.
- (٥) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٤ فى مجلدين، بيروت (د.ت)، ج٣، ص ٨٢.
- (٦) Eracles, L'Estoire d'Eracles Empereur et de Conquest de la Terre d' Outre mer, cf, R.H.C, H. Occ., Tom. II, Paris, 1839, pp. 124-324.
- (٧) Ernoul, Chronique d' Ernoul et de Bernard le Trésorier, ed. M. L. de Mas Latrie, Paris, 1871, pp. 240-291.
- (٨) Geoffrey de Vinsauf, Itinerary of Richard I and Others to the Holy Land, cf C.C., London, 1848, pp. 234-282.
- (٩) Ambroise B., The Crusade of Richard Lion-Heart, ed.J.L. La Monte, New York, 1941, pp. 334-338.
- (١٠) Amadi, Chronicles d' Amadi et de Strambaldi, ed M. L. de Mas Latrie, 2 vols, Paris, 1891-1893, pp. 36-39.
- (١١) Roger de Hoveden Annals, 2 Vol, London, 1853., Vol II, pp. 174-812.
- (١٢) Matthew of Westminster, the Flowers of History, 2 Vols., London, 1853, Vol. II, p. 83.
- (١٣) Ralph Diceto, Ymagins Historiarum, ed. W. Stubbs, 2 Vols, London, 1876, Vol II, pp. 104, 127-128.

وقبل أن نمضى فى الحديث عن جذور النزاع الصليبي على عرش مملكة بيت المقدس^(١)، يجب الاشارة فى هذا الأمر إلى نجاح المريكز كونراد دى موتفترات فى الدفاع عن مدينة صور، والحيلولة دون سقوطها فى أيدي صلاح الدين بعد معركة حطين^(٢)، مما أعطى لهذا الرجل شهرة بين الصليبين ووضعة ضمن عظماء الصليبين وقادتهم الكبار فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الصليبين فى المشرق الإسلامى.

وبعد أن تم إطلاق سراح جاي دى لوزجنان، حاول أن يجمع شتات مملكته السابقة فتوجه إلى مدينة صور، على أمل أن تصبح مركزاً لحكمه، بيد أن كونراد رفض أن يسلمها له، وثار الجدل بينهما حول أحقية كل منهما فى حكم المدينة، وإتفق الجانبان على إرجاء الفصل بينهما إلى حين وصول الحشود الصليبية المرتقبة بقيادة الملك الانجلىزى ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩هـ/٥٨٥-٥٩٦هـ)، والملك الفرنسى فيليب أوغسطس Philip Auguste^(٣) (١١٨٠-١٢٢٣م/٥٧٦-٦٢٠هـ) فبدأ النزاع بين الرجلين ولهذا توجه جاي دى لوزجنان إلى مدينة عكا لإستعادتها من أيدي المسلمين^(٤).

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : سعيد عاشور : المرجع السابق، ج٢، ص٧٩٢-٧٩٦؛ ستيفن رنسيومان: المرجع السابق، ج٢، ص٧٠٩-٧٢٦.

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق، ج٩، ص١٨٧؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص١٣٦؛ وأيضا : Eracles, op. cit., pp. 240-244; Ernoul, op. cit., p. 244.

(٣) عماد الدين الكاتب: المصدر السابق، ص٢٨٩؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص٩٨؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج٢، ص١٤٠؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٤؛ وأيضا : Ernoul, op. cit., p. 256; Eracles, op. cit., vol. I, p. 21; Vinsaut; op.cit., p. 103.

(٤) عماد الدين الكاتب: المصدر السابق، ص٢٨٩، ٢٩٦؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ج٩، ص١٩٩، ابن واصل : المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٨؛ وأيضا : Eracles, op. cit., pp. 124-125; Vinsauf, op. cit., p. 104; Ernoul, op. cit., p. 257, Ambreais, op. cit., pp. 129-130.

وأثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا الإسلامية ماتت الملكة سيبلا Sybilla
زوجه جاي دى لوزجان فى عام ١١٩٠م/٥٨٦هـ، فقد جاي الشرعية
لحمل تاج مملكة بيت المقدس (الإسمية).

إذا أصبحت الأميرة إيزابيل Isabel الوريثة الشرعية لأختها الملكة سيبلا
واغتمت خصوم جاي هذه الفرصة، وأوعزوا لكونراد بضرورة الزواج من الأميرة
إيزابيل على الرغم من أنها كانت زوجة لهمفري Humphrey حاكم تبين،
ونجح أنصار كونراد فى إتمام طلاق إيزابيل من همفري، وتزويجها له، مما دعم
موقف المركز فى المناداة بعرش الملكة^(١).

وكاد هذا الأمر أن يحدث إنشقاقاً خطيراً فى صفوف الصليبيين^(٢)، إذ
رفضت جماعة الفرسان الداوية هذه الزيجة، وأيدت الملك الأسبق جاي، بينما
ساند غالبية الأمراء الصليبيين مطالب كونراد^(٣). ولم ينقذ الموقف سوى وصول
كل من الملك الفرنسى فيليب فى إبريل عام ١١٩١م / ربيع الأول ٥٨٧هـ.
والملك الانجليزى ريتشارد الأول فى يونية / جمادى الأول^(٤) من العام نفسه
إلى المعسكر الصليبي أمام مدينة عكا.

(١) عماد الدين الكاتب : المصدر السابق، ص ٤٩٤؛ وايضا :

Ambroise, op. cit., p. 177; Ernoul, op. cit., pp. 267-268; Eracles, op. cit., pp. 151-153; Amadi, op. cit., vol. I, 26; Vinsauf, op. cit., p. 292.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ج-٢، ص ٨٦٣.

(٣) Amadi, op. cit., vol. I, p. 27; Eracles, op. cit., p. 154.

(٤) عماد الدين الكاتب : المصدر السابق، ص ٤٧٤، ٤٨٤؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ج-٩،

ص ٢١٣؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص ١١٦١؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج-٢، ص ١٨٣؛ ابن

واصل : المصدر السابق، ج-٢، ص ٣٥٠ وايضا :

Ernoul, op. cit., pp. 273-274; Ernacles, op. cit., p. 169; Ambroise, op. cit., p. 191, 193; Amadi, op. cit., vol. I, p. 26; Vinsauf, op. cit., p. 220.

ورغم وصول العاهلين الفرنسي والانجليزي إلا أن المشاحنات الحزبية بين أنصار كل من جاي وكونراد ظلت مستمرة، وزاد الموقف تعقيداً عندما أيد الملك الفرنسي مطالب ابن عمه كونراد في الإرتقاء إلى عرش المملكة، بينما تبني الملك الانجليزي مطالب جاي دي لوزجنان. كما شاركت الجاليات التجارية الإيطالية في هذا النزاع، وانضم البيازنة إلى حزب جاي، بينما إنحاز الجنوبية إلى حزب كونراد^(١). ويشير امبرواز إلى أن المركز غادر المعسكر الصليبي أمام مدينة عكا، ورحل إلى مدينة صور بعدما شعر بعدم قدرته على تأمين حياته^(٢)، ويتفق المؤرخ ابن شداد مع امبرواز فيما يتعلق برحيل كونراد إلى صور، ويحدده بيوم الاثنين ٢٩ جمادى الأولى عام ٥٧٨ هـ / ٢٤ يونية عام ١١٩١ م، ويعلل ابن شداد سبب رحيله بأنه استشعر مؤامرة تدبر ضده للقبض عليه، ومنح مدينة صور للملك الأسبق جاي دي لوزجنان وأنه عندما أيقن تحقيق المؤامرة، أسرع بالهروب إلى مدينة صور^(٣).

أما عن رواية عماد الدين الكاتب، فعلى الرغم من أنها تتفق مع ما ذكره ابن شداد في أن رحيل كونراد إلى مدينة صور كان يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى، إلا أنها تختلف عنها فيما يختص بالدافع الذي أدى إلى مغادرة كونراد للمعسكر الصليبي. إذ يشير عماد الدين الكاتب أن سبب هروبه إلى صور إنما يرجع إلى زواجة من إيزابيل بعد إرغام زوجها همفري على أن يطلقها حتى تقوى دعواه بأحقيته في عرش المملكة، لاسيما بعد وفاة الملكة سيبلا زوجة جاي دي لوزجنان، ثم يضيف عماد الدين الكاتب أن كلاً من همفري وجاي انتهزا فرصة وصول الملك الانجليزي ريتشارد، وتظلما له، فخاف كونراد وشعر بالخطر، فأصطحب زوجته وتوجه إلى مدينة صور^(٤).

(١) Ambroise, op. cit., p. 211; Roger de Hoveden, op. cit., vol. II, p. 174; Amadi, op. cit., vol. I, p. 27; Ambroise, op. cit., p. 133.
(٢) Ambroise, op. cit., p. 180.

(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٤) عماد الدين الكاتب: المصدر السابق، ص ٤٤٩.

هذا عن الروايات التي دارت حول رحيل كونراد دي مونتفرات إلى مدينة صور قبيل إستيلاء الصليبيين على مدينة عكا الإسلامية، ونلاحظ أنها أجمعت على حالة القلق التي انتابتة قبيل رحيلة، مما أستوجب منه قدراً من الحيلة والحذر بعد أن أصبحت المخاطر تحيط به، فالتمس النجاة، وسعى من فوره إلى مغادرة المعسكر الصليبي ومعه زوجته إيزابيل، وتوجه إلى مدينة صور.

كما تبين هذه الروايات أن العلاقة بين كونراد وجاى قد تأزمت وانتقلت من مرحلة التنافس والصراع على تاج المملكة إلى المرحلة التي أصبحت فيها حياته مهددة بالخطر، وعلى هذا يمكن القول أن بدايات قضية مقتل كونراد دي مونتفرات حدثت في هذا التاريخ أى فى الفترة التي حاصر فيها الصليبيون مدينة عكا لاعادتها إلى السيادة الصليبية وخلال تجمع الصليبيين أمام عكا فى تلك الظروف.

ومهما يكن من أمر، فقد شعر الصليبيون أمام مدينة عكا بالحزن لرحيل كونراد، مما دفع العاهلين الانجليزى والفرنسى إلى إرسال مبعوثين إلى مدينة صور لتهدئة روعه كونراد وإزالة مخاوفه وإقناعه بالعودة للانضمام إلى جانب الصليبيين أمام عكا.

ويبدو أن المبعوثين قد نجحوا فى هذه المهمة فعاد المركيز إلى المعسكر الصليبي، ولعب دوراً بارزاً فى التفاوض مع الحامية الإسلامية فى مدينة عكا^(١)، مما كان له أكبر الأثر فى استسلام المدينة للصليبيين يوم الجمعة ١٢ يوليو عام ١١٩١م / ١٧ جمادى الآخرة عام ٥٨٧هـ.

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الدور انظر : عماد الدين الكاتب: المصدر السابق، ص ٥١٢-٥١٣؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ج٩، ص ٢١٤؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٧٠-١٧١؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٤-١٩٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٩-٣٦٠؛ وايضا :

Eracles, op. cit., p. 177; Ernoul, op. cit., p. 274; Ambroise, op. cit., p. 217; Amadi, op. cit., vol. I, pp. 29-30; Vinsauf, op. cit., pp. 214-215; Roger de Hoevden, op. cit., vol. II, p. 206.

وبعد دخول الصليبيين مدينة عكا، شرعوا في البحث عن تسوية للنزاع حول عرش مملكة بيت المقدس، وبعد سلسلة من المشاورات إتفق زعماء الفرنج على أن يظل جاي ملكاً (إسمياً) على مملكة بيت المقدس طوال حياته. ثم ينتقل تاج المملكة بعد وفاته إلى كونراد وإيزابيل وسلالتهما، ويظل كونراد خلال هذه الفترة حاكماً لمدينة صور بالإضافة إلى مدينتي بيروت وصيدا^(١).

وإذا نظرنا إلى هذا الإتفاق بعين الاعتبار نجد أن بنوده تدعو إلى الدهشة والتعجب. لأنه لم يبق للصليبيين في هذه الفترة من مملكة بيت المقدس السابقة سوى مدينتي صور وعكا، وطبقاً لبنود هذا الاتفاق يكون جاي دي لوزجان ملكاً على مدينة عكا فقط، بعد ما ظلت صور في حوزة كونراد هذا من جهة، ومن جهة أخرى كيف يوافق القادة الصليبيون على منح بيروت وصيدا لكونراد وهما تحت السيادة الإسلامية وقتذاك؟

ولا نجد تفسيراً لهذا سوى أن الزعماء الصليبيين شعروا بالتفاؤل بعدما دخلوا مدينة عكا وظنوا أنهم أصبحوا قادرين على استعادة أراضي مملكة بيت المقدس السابق من المسلمين، فقاموا بتقسيمها على كل من جاي وكونراد قبل أن تصبح في حوزتهم فعلاً.

على أية حال يبدو أن هذا الإتفاق لم يحقق كل مطامع كونراد، فاستغل رغبة الملك الفرنسي فيليب أوغسطس في العودة إلى بلاده، فغادر معه مدينة عكا في أواخر يوليو ١١٩١م / أوائل رجب ٥٨٧هـ، وتوجهها إلى مدينة صور استعداداً لرحيل فيليب إلى فرنسا^(٢).

(١) Eracles, op. cit., pp. 179-180; Ambroise, op. cit., pp. 210-211; Vinsauf, op. cit., p. 217; Roger de Hoveden, op. cit., vol. II, p. 174; Amadi, op. cit., vol. I, p. 30.

(٢) عماد الدين الكاتب : المصدر السابق، ص ٥٢٦-٥٢٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج٩، ص٢١٦؛ وايضا :

Eracles, op. cit., p. 181; Ambroise, op. cit., p. 224; Vinsauf, op. cit., pp. 219-220; Ernoul, op. cit., p. 288; Amadi, op. cit., vol. I, p. 31.

وقد أثار رحيل كونراد غضب الملك الإنجليزي ريتشارد، فأرسل إليه المبعوثين تباعاً لإقناعه بالعودة إلى مشاركة الصليبيين في محاربة المسلمين، ولكن كونراد لم يعر هذه النداءات أى إهتمام^(١).

وينفرد المؤرخ ابن الأثير برواية يعلل بها سبب مغادرة كونراد مدينة عكا ورحيله إلى صور في هذه الفترة، فيشير إلى أنه شعر من ملك إنجلترا الغدر فهرب إلى مدينة صور، وظل بها يوجة النقد اللاذع للملك ريتشارد لأنه ترك صلاح الدين يخرب مدينة عسقلان^(٢).

ولم نجد في المصادر الأخرى ما يؤكد رواية ابن الأثير، وكل ما نستطيع أن نستشفه منها عن العلاقة بين كونراد والملك الإنجليزي ريتشارد أن هذه العلاقة أخذت تتحول يوماً بعد يوم من سئ إلى أسوء^(٣)، وأنه عندما علم بأنباء المفاوضات بين الملك ريتشارد وصلاح الدين أسرع هو الآخر وأرسل رينالد Renauld الذى كان حاكماً على صيدا من قبل إلى المعسكر الإسلامى ليحبر لصلاح الدين عن رغبة كونراد فى مصالحة المسلمين مقابل إعطائه صيدا وبيروت وإعادتهما لسيادة كونراد، وتعهد كونراد لصلاح الدين أيضاً بأنه يجاهر الفرج بالعدواة. وأن يقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم وإشترط كونراد لتحقيق ذلك أن يحلف صلاح الدين له اليمين للوفاء بما إتفق عليه من شروط، فلما سمع صلاح الدين بمطالب كونراد، أرسل إليه رسولاً فى رمضان ٥٨٧هـ / سبتمبر ١١٩١م يشترط عليه أن يبدأ بمحاصرة الصليبيين فى عكا،

(١) Ambroise, op. cit., pp. 225-226; Ernoul, op. cit., p. 289; Era-cles, op. cit., p. 182; Vinsauf, op. cit., pp. 221-222.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ٢١٦.

(٣) عن العلاقات بين ريتشارد وكونراد انظر :-

Ambroise, op. cit., pp. 227, 315, 319, 329; Vinsauf, op. cit., pp. 252, 264-268.

ويأخذها منهم، ويطلق سراح من بها ومن بمدينة صوراً أيضاً من أسرى المسلمين، وعندئذ يسلم له صلاح الدين صيدا وبيروت^(١).

ولما علم الملك ريتشارد بانباء هذه المفاوضات عاد مسرعاً إلى مدينة عكا ليتفقد أحوالها، ويطمئن على سير الأمور بها وزيادة تحصينها فلما تم له ذلك، حاول أن يثنى كونراد عن المضى في مفاوضاته مع صلاح الدين، وينبذ الخلاف مع الصليبيين وينضم إليهم في محاربة المسلمين، ولكنه لم يجد الاستجابة من كونراد فقد ظلت المفاوضات بين المراكز^(٢) وصلاح الدين مستمرة ويبدو أن كلا الجانبين تمسك بموقفه. إذ رفض صلاح الدين أن يمنحه مدينتي صيدا وبيروت إلا بعد مجاهرته للصليبيين بالعداء، بينما أرسل كونراد رسوله رينالد مراراً إلى صلاح الدين لمحاولة زحزحته عن موقفه لكن العاهل الأسلامي ظل مصراً على موقفه^(٣).

وفي شوال عام ٥٨٨هـ / يناير ١١٩٢م عقد صلاح الدين مجلساً ضم أكابر الأمراء وأرباب المشورة من المسلمين ليقرروا مع أى جانب من الفرنج تمضى المفاوضات، فاستقر الرأي على استمرار المحادثات مع الملك ريتشارد.

وعلى الرغم من أن صلاح الدين إستجاب لرأى مستشاريه، ومضى فى مفاوضاته مع ريتشارد إلا أنه لم يعلق باب المحادثات تماماً مع كونراد، ولعل هذا مرجعة خبرة صلاح الدين وبعد نظرة، إذ رأى أنه فى استمرار مخاصمة كونراد للفرنج مصلحة للمسلمين من جهة، ومن جهة أخرى فان استمرار المحادثات

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٩٠؛ ابو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩١-١٩٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٢؛ وايضا :

Ambroise, op. cit., pp. 331-332; Vinsauf, op. cit., p. 268.

(٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٩٩؛ ابو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٢-١٩٣، وأيضا: Ambroise, op. cit., p. 331.

(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٩٩، وايضا:

Ambroise, op. cit., p. 331.

مع كونراد يؤدي إلى جعل الملك، ريتشارد^(١) يبدى بعض المرونة في مفاوضاته مع المسلمين، ولذلك استقبل صلاح الدين غلاماً لرينالد صاحب صيدا يدعى يوسف على أنه رسول من كونراد يلتمس الصلح مع المسلمين، فاشتراط عليه صلاح الدين أن يقاتل كونراد بنى جنسه من الفرنج، وما يستولى عليه من المدن الصليبية بمفرده بعد الصلح مع المسلمين يكون له، وما يسترده المسلمون بانفراجهم يكون لهم.

أما المدن التي يدخلها صلاح الدين وكونراد معاً فتكون المدينة لكونراد، فيما يكون لصلاح الدين الأموال والأسرى من المسلمين. كما اشترط عليه صلاح الدين أن يطلق سراح كافة الأسرى المسلمين عنده أولاً، وبذلك يؤكد رغبته في مصالحة المسلمين. ولما كان صلاح الدين بعيد النظر، وتحسباً لما قد يحدث على مسرح الأحداث بين المسلمين والصليبيين، فقد اشترط على كونراد أنه إذا تصالح الملك ريتشارد معه، ومنحه الملك بعض المدن عندئذ يكون الصلح بين كونراد والمسلمين وفقاً لما تستقر عليه المفاوضات والصلح بين المسلمين والملك ريتشارد فيما عدا مدينة عسقلان. وعاد يوسف إلى مدينة صور يحمل لكونراد هذه المقترحات^(٢).

وعندما سمع الملك ريتشارد عن المفاوضات بين كونراد وصلاح الدين، أسرع في فبراير ١١٩٢م / المحرم ٥٨٨هـ. ليطلب التركيز بالمشاركة فيما يجري في مدينة عسقلان من أعمال بيد أن كونراد رفض مغادرة مدينة صور ولم يستجب لنداء الملك.

ويبدو أن كونراد أراد أن يحقق بعض ما إلتزم به من شروط صلح الدين، فأوعز لانصاره من الجنوية وبعض الجند الفرنسيين في عكا بمحاولة

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٠٦.

الاستيلاء على المدينة وتسليمها إليه وعندما شرع الجنوية في تنفيذ هذا المخطط، تصدى لهم البيازنة، ودارت الحرب بين الجاليتين التجاريتين في شوارع عكا وانتهت بنجاح البيازنة في السيطرة على المدينة. وبذلك فشلت محاولة كونراد في السيطرة على عكا وبالتالي في إرضاء صلاح الدين^(١). وجدير بالملاحظة أن جاي دي لوزجنان كان قد ترك المعسكر الصليبي في عسقلان قبيل هذه الحرب، وتوجد إلى مدينة يافا يرافقه بعض فرسان الداوية^(٢)، ولما سمع بأنباء هذه الحرب عاد مسرعاً إلى المدينة، حيث رفض البيازنة تسليمها له، وأرسلوا إلى الملك الإنجليزي ريتشارد يناشدونه سرعة المجيء إلى عكا، فاسرع ريتشارد بالرحيل إلى المدينة، وبعد أن أعاد إليها الأستقرار، أرسل سفارة إلى كونراد ليلتقى به عند قرية ايمبرت Ymbrit بالقرب من مدينة صور. وفي خلال الحديث الذي دار بينهما حاول ريتشارد بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى أن يجعل كونراد يتراجع عن موقفة وينبذ الفرقة وينضم إلى الجيش الصليبي ولكن لم يجد سوى اصرار كونراد على موقفه، فتوجه ريتشارد إلى مدينة عكا^(٣) في أواخر فبراير ١١٩٢م / أواخر صفر ٥٨٨هـ دون أن يحسم الأمر مع كونراد.

ونظراً لفشل محاولة كونراد في الاستيلاء على مدينة عكا، فكر كونراد من جديد في مراسلة صلاح الدين في محاولة للتودد وتجديد المصالحة فبعث رسوله يوسف إلى المعسكر الإسلامي في يوم الثلاثاء ٢١ إبريل ١١٩٢م / ٦ ربيع الآخر ٥٨٨هـ، يبدى رغبته في تجديد الصباح مع المسلمين، ويبدى لصلاح الدين عدم استطاعته تنفيذ الشروط التي اتفق عليها من قبل، نظراً لأن كونراد كان يضع كل الآمال على الجند الفرنسيين، ولكنهم غادروا الشام إلى

(١) Ambroise, op. cit., p. 315; Vinsauf, op. cit., pp. 264-266.

(٢) Ambroise, op. cit., p. 305; Vinsauf, op. cit., p. 298.

(٣) Ambroise, op. cit., pp. 315-317; Vinsauf, op. cit., pp. 266-267.

الغرب الأوروبي ولذلك لم يعد فى استطاعته تنفيذ هذه الشروط، وأن المسلمين إذا لم يسرعوا بمصالحته فهذا يعنى غلق باب المفاوضات تماما معه. فلما سمع صلاح الدين هذا الحديث مال إلى مصالحته، وأرسل سفارة توجّهت إلى مدينة صور بعد صلاة الجمعة ٩ ربيع الآخر ٥٨٨هـ / ٢٤ أبريل ١١٩٢م للتشاور فى هذا الأمر.

وفى الوقت نفسه كان الملك ريتشارد قد تلقى ما يفيد سوء الأحوال فى إنجلترا، واضطراب الأمور هناك مما يتطلب سرعة العودة إلى الوطن. لذلك دعا إلى عقد مجلس فى مدينة عكا حضره معظم النبلاء والفرسان الصليبيين، وفيه أعرب الملك عن رغبته الملحة فى الرحيل إلى إنجلترا وأنه لا بد من حسم مشكلة الصراع على تاج المملكة، وعرض على المجتمعين حرية اختيار واحد من المتنافسين إما جاي دى لوزجان أو كونراد دى مونتفرات ليتوج على عرش المملكة. فاختارت الأغلبية كونراد لهذا المنصب ووافق الملك على هذا الإختيار.

وأرسل ابن أخته هنرى كونت شامبني Henery of Champagne إلى مدينة صور، ليخبر كونراد بما تم الإتفاق عليه ثم رحل الملك إلى المعسكر الصليبي فى مدينة عسقلان^(١).

ومالبث هنرى دى شامبني مبعوث الملك ريتشارد أن وصل إلى مدينة صور فى ٢٠ إبريل ١١٩٢م / ٥ ربيع الآخر ٥٨٨هـ أى قبل يوم واحد من وصول رسول كونراد إلى معسكر صلاح الدين، والتقى هنرى بكونراد، ونقل إليه بشارة اختياره ملكاً^(٢)، فتهلل كونراد بالفرح ووافق على التوجه إلى مدينة

(١) Ambroise, op. cit., pp. 328-330; Vinsauf, op. cit., pp. 273-274.

(٢) Ambroise, op. cit., p. 330, Vinsauf, op. cit., pp. 274-275.

عكا بعد بضعة أيام ليتوج بها ملكاً ثم توجه هنرى إلى مدينه عكا وظل بها بعض الوقت، ثم رحل منها إلى مدينة عسقلان لمقابلة الملك ريتشارد يوم الثلاثاء ٢٨ إبريل ١١٩٢م / ١٣ ربيع الآخر ٥٨٨هـ، وفى طريقة إلى هناك بلغة مقتل كونراد دى مونتفرات، فعاد هنرى مسرعاً إلى مدينة صور^(١).

أما قضية مقتل كونراد فقد تناولتها المصادر العربية والغربية^(٢) ونلاحظ أنها أجمعت على أن اثنين من جماعة الباطنية هما اللذان قاما بقتل المركز بأمر من قائدهم شيخ الجبل سنان^(٣).

ونظراً لهذا الإجماع من المؤرخين يصبح أمامنا احتمالين لا ثالث لهما: إما أن يكون سنان قد أصدر أوامره لاتباعه بدافع الإنتقام الشخصى، وإما أن يكون قد أصدر أوامره بتحريض من شخص آخر.

وإذا تناولنا الاحتمال الأول : نجد أن المؤرخ إرنول يعتقد أن سنان أراد أن ينتقم من كونراد لأنه إعتدى على سفينة تجارية تابعة لجماعة الباطنية وسلبها، ثم تجاهل مطالب سنان بتعويضه عن ما سلبه فى هذه السفينة، لذلك صمم سنان على قتله^(٤)، ولكن هذه الرواية نقلها إنول عن خطاب مزعوم، يقال أن سنان قد أرسله فى سبتمبر عام ١١٩٣م / رمضان عام ٥٨٩هـ إلى ليوبولد Leopold دوق النمسا يروى له قصة استيلاء كونراد على هذه السفينة^(٥).

(١) Ernoul, op. cit., p. 291.

(٢) عن هذا المصادر انظر ما سبق ص ٢-٣.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه الجماعة ومبادئها وعلاقتها بالفرخ انظر :

Hellert, Histoire de l' Ordre des Assassins, Paris, 1833, pp. 1-50.

(٤) Ernould, op. cit., pp. 288-289.

(٥) Ralph Diceto, op. cit., vol. II, pp. 127-128.

وإذا ناقشنا تفاصيل هذه الرواية نجد أنها مرفوضة من حيث الشكل والموضوع إذ لم يكن لجماعة الباطنية أى نشاط بحرى تجارى حتى يمتلكوا سفينة تجارية^(١)، كما أن المناطق الجبلية التى عاش فيها أفراد هذه الجماعة كانت بعيدة عن البحر، ولم يكن لهم ميناء لترسو به هذه السفينة^(٢).

بالإضافة إلى ذلك فإن سنان كان قد توفى فى عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ أى قبل عام من تاريخ كتابه هذا الخطاب^(٣).

وفى ضوء ما سبق لم يبق أمامنا سوى الاحتمال الثانى وهو أن يكون مقدم الباطنية قد أصدر أوامرة بتحريض من آخر، فإذا صدقنا هذا الاحتمال يواجهنا تساؤل هام آخر وهو من الذى قام بتحريض سنان على قتل كونراد؟

ونظراً لأن التحريض من الأمور الخفية التى يصعب إثباتها فقد اختلفت وجهات النظر بين المؤرخين حول تحديد المحرض على قتل المركيز، إذ يوجه المؤرخ ابن الاثير الاتهام لصلاح الدين، ويرى أنه هو الذى راسل متقدم الاسماعيليه سنان لقتل الملك الانجليزى ريتشارد أوكونراد^(٤).

بيد أن ما ذكره ابن الاثير لا يستحق أن يقف عنده الباحثون طويلاً، ورواية لا يعتد بها كثيراً لأنها تنطوى على كراهية لشخص صلاح الدين وتطفح بالحقد عليه فضلاً عن أننا نعى تماماً أنه لم يكن هناك وداً وصفاء بين صلاح الدين وجماعة الباطنية بما يشجعه على أن يطلب منهم الإقدام على هذا الأمر، بالإضافة إلى أن لم يكن فى مصلحة صلاح الدين قتل أى من

(١) Hodgson, M.G., The Order of Assassins, Gravenhage, 1955, p. 207.

(٢) Bernard, L., The Ismailles and the Assassins, Philadelphia, 1955, pp. 99, 132.

(٣) Hodgson, op. cit., pp. 206-207.

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق، ج٩، ص ٢١٩.

الملك ريتشارد أو كونراد، لان مفاوضاته مع كل منهما كانت لاتزال تبشر بالتقدم الذى يقضى إلى الأتفاق، فضلاً عن أن شخصية صلاح الدين وفروسيته ونقاؤه تنفى عنه هذه التهمة وتجعلها بعيدة الاحتمال^(١)، على الرغم من أن صلاح الدين لم يسلم حينئذ من كراهية وتحامل ابن الاثير ولومه ومحاولة إصاق تهمة سيئة به.

وتخالف المصادر العربية المصادر الغربية فيما يختص باعتراف أحد القاتلين من الباطنية بعد إلقاء القبض عليه، فتشير المصادر العربية إلى أنه اعترف أن من أرسلهما هو الملك ريتشارد^(٢)، بينما تشير المصادر الغربية أنه أقر بأن الذى أرسلهما هو قائدهم سنان^(٣).

وفى ضوء ما أشارات إليه المصادر العربية يصبح ريتشارد فى نظراً المؤرخين المسلمين هو المحرض على قتل كونراد، على الرغم من أن هذا الإتهام تؤيده بعض الآراء والأحداث وتنقيه أخرى فمن الأولى نشير إلى الإتهام الذى وجهه الإمبراطور هنرى السادس Henery VI للملك ريتشارد بعد عودته من الشام، بأنه كان المحرض على قتل كونراد^(٤)، ومن الثانية هناك من الأحداث ما يجعل ريتشارد بعيداً عن هذا الإتهام. إذ أنه وافق على اختيار كونراد ملكاً قبيل مصرعة^(٥) بأيام قليلة، حتى لو كانت هذه الموافقة نزولاً على رأى أغلب

Saunders, J., Aspects of the Crusades, University of Canterbury, (١) 1962, p. 27.

(٢) عماد الدين الكاتب: المصدر السابق، ص ٥٨٩، ابن شداد: المصدر السابق، ٣٨١-٣٨٢، ابو شامة: المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٦.

(٣) Eracles, op. cit., pp. 192-193; Ernoul, op. cit., p. 289; Am- broise, op. cit., 335; Vinsauf, op. cit., p. 277; Roger de Hoved- en, op. cit., vol. II, p. 716; Amadi, op. cit., vol. I, pp. 36-37.

(٤) Matthew of Westminster, op. cit., vol. II, pp. 83-84.

(٥) انظر ما سبق، ص ١٨.

الأمراء الصليبيين، لأن شخصية ريتشارد الحازقة وقوته كانت تمكنه من رفض هذا الاختيار أو على الأقل تأجيل البت في هذا الأمر حتى يتم إغتيال كونراد لو أننا جارينا أولئك الذين اتهموا ريتشارد بالتآمر لأغتيال كونراد^(١) كما أن بونيفاس Boniface شقيق كونراد لم يظهر العداوة لريتشارد بعد عودته إلى إنجلترا بها، وظل يعمل في خدمته^(٢). ولعل ذلك يؤكد أن ريتشارد بعيداً كل البعد عن هذه المؤامرة بريئاً من مرتكبيها.

ونظراً لتارجح الروايات بين مؤيدة ومعارضة فإننا لانستطيع أن نجزم بأن ريتشارد كان المحرض على قتل كونراد. ولكن ما من شك في أن السبب الأساسي لمقتل كونراد يرجع إلى مشكلة الصراع على تاج مملكة بيت المقدس والتنافس حول عرشها، وعلى ذلك يمكن أن نتكهن بان ثمة شخصيات أخرى كان لها مصلحة مباشرة فيما حدث ولذلك لعبت دوراً هاماً في مقتل كونراد حاكم صور الذي اختير ملكاً لمملكة بيت المقدس في عكا.

ويعتبر الملك جاي دي لوزجنان وانصاره من الداوية على رأس هؤلاء الأفراد ممن لهم مصلحة حقيقية في قتل كونراد، بل أن جاي هذا يعد من الشخصيات التي حامت حولها الشبهات بقوة وأشارات إليه أصابع الاتهام، فلا بد وأن شعر بأنه كان يواجه خصماً عنيداً ونداً قوياً لأن كونراد لم يظهر له مودة بل ظل يتطلع بقوة لعرش المملكة فلم يحد جاي بدأ من أن يوصى لأنصاره من الداوية بالتخلص من كونراد خاصة لما لهم من نفوذ لدى جماعة الباطنية يمكنهم من أن يطلبوا منهم تنفيذ هذه المؤامرة^(٣).

(١) Cartellieri A., Richard Löwenherz im Heiligen Lande, Zeitschrift, 1908, p. 20.

Vinsauf, op. cit., p. VIII in introduction. (٢)

(٣) عن هذا النفوذ انظر :

Joinville, J., Histoire de Saint Louis, ed. N. de Wally, Paris, 1868, p. 248.

ولا بد وأن الداوية شرعوا في تنفيذ مطالب جاي منذ أن رحلوا من المعسكر الصليبي أمام عسقلان في نهاية عام ١١٩١م / نهاية عام ٥٨٧هـ بصحبة جاي متوجهين إلى مدينة يافا^(١) لأن المصادر تشير إلى أن القائلين ظلا يعملان في خدمته بضعة شهور^(٢) قبل أن يقوموا بقتله.

كما يبدو أن اختيار زعماء الصليبيين كونراد ليصلح ملكاً على بيت المقدس هو الذي جعل جاي يعجل بتنفيذ مخططة على أمل أن يزيح كونراد من طريقة ليعاد إنتخابه ملكاً على بيت المقدس ولكن الرياح سارت على غير ما يشتهي إذ أصبح هنري شامبني بعد مقتل كونراد هو الملك على مملكة بيت المقدس الاسمية.

ويمكن أن نضيف إلى قائمة الشخصيات المشتبه فيها شخصية أخرى ونعني بها هنري كونت شامبني الذي يبدو أنه كان على علم بتفاصيل المؤامرة قبل حدوثها، وإلا كيف علم بأنباء مقتل كونراد وهو يغادر مدينه عكا متوجهاً إلى مدينة عسقلان لأن سرعان ما حول وجهته وسار إلى مدينة صور ودخلها بعد مقتل كونراد بوقت قصير^(٣)، وحتى لو افترضنا حسن الظن بهنري وأنه غير وجهته تجاه صور عندما قابل الرسول الذي أرسله أهل صور ليخبر الملك ريتشارد بأنباء مقتل كونراد، وعلم بهذا النبأ، لكن ألم يكن من الواجب أن يترك الرسول يكمل مسيرته إلى المعسكر الصليبي في عسقلان ليخبر الملك مما جرى من أحداث.

(١) انظر ماسبق ص ١٦ .

(٢) عماد الدين الكاتب؛ المصدر السابق، ص ٥٨٩؛ ابن الاثير؛ المصدر، ج٩، ص ٢١٩؛ ابو شامة:

المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٦؛ ابن واصل؛ المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨١؛ وايضا :

Eracles, op. cit., p. 192; Ernaoul, op. cit., pp. 289-290; Ambroise, op. cit., p. 335; Vainsauf, op. cit., p. 277.

Ernoul, op. cit., p. 291

(٣)

الواقع أن المؤرخين امبرواز وجوفرى فينيسوف اللذين كانا وقتئذك يراققان الملك ريتشارد فى عسقلان يشيران إلى أن الأنباء التى جاءتهم من صور بمقتل كونراد إقترنت بخير دخول هنرى مدينة صور، وإعلان خطبته للأميرة إيزابيل زوجة كونراد السابقة^(١)، مما يثير انتباه الباحث ويدفع بظلال من الشك حول هنرى دى شامبنى.

لأن الإشارة السابقة تدل على أن هنرى توجه إلى مدينة صور وأعلن خطبته للأميرة إيزابيل دون أن يستشير الملك ريتشارد فى هذه الأمور. كما أنه بعد أن تم تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس الاسمية قام بزيارة عام ١١٩٤م / ٥٩٠هـ لجماعة الباطنية فى قلعة الكهف^(٢) بجبال النصيرية فى الشام، بدلاً من محاربتهم لقيامهم بقتل كونراد، بل عقد معهم محالفة^(٣) تعهد بموجها الباطنية باغتيال كل من يشير إليه هنرى من خصومة^(٤) وهكذا أعاد هنرى مرة أخرى علاقة الصداقة بين الصليبين وجماعة الباطنية^(٥).

كما يمكن أن نضم أيضاً الأميرة إيزابيل إلى قائمة المتهمين بقتل كونراد. فقد أسرعت هى الأخرى بعد مصرع زوجها بأغلاق أبواب المدينة، ولم تسلم مفاتيحها إلا للأمير هنرى كونت شامبنى رغم أنه وقتئذك لم يحمل أية توصيات من الملك ريتشارد، كما أنها وافقت على خطبتها وزواجها من هنرى ولما يمضى على مصرع زوجها سوى أسبوع واحد^(٦)، ولم تكن

(١) Ambroise op. cit., pp. 338-339; Vinsauf, op. cit., 272

(٢) Eracles, op. cit., p. 216; Ernoul, op. cit., p. 323

(٣) Grousset, R., Histoire des Croisades et du royaume France de Jerusalem, 3 vols, Paris, 1934-1936, Vol. III, p. 135.

(٤) Eracles, op. cit., p. 231; Ernoul, op. cit., pp. 323-324.

(٥) Cahen, C., La Syrie du Nord, Paris, 1940, p. 585

(٦) Eracles, op. cit., p. 195; Ernoul, op. cit., p. 291; Ambroise, op. cit., pp. 342-344; Vinsauf, op. cit., p. 232.

وضعت حملها بعد من زوجها السابق كونراد^(١) كأنما تريد أن تنتقم من
المركيز حتى بعد وفاته، وتعيد إلى الأذهان كيف أن كونراد تزوجها وهي
حامل من زوجها الأسبق هنرى.

وأما كانت الحقيقة فى هذه القضية فان أصابع الإتهام أشارت إلى
شخصيات متعددة كان لها مصلحة ملحة فى قتل كونراد أولهم جاي دى
لوزجان وثانيهم هنرى دى شامبني وأخرهم إيزابيلا زوجه الملك المقتول، ولم
يحسم المؤرخون حتى الآن هذه القضية ولم يجزموا أى هؤلاء هو قاتل أو
المحرض على قتل كونراد دى مونتفرات.

(١) عماد الدين الكاتب: المصدر السابق، ص ١٥٩٠ ابن الاثير: المصدر السابق، ج٩، ص ٢١٩؛ ابن
واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٨٢.

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

أولا المختصرات الواردة فى حواشى البحث

R.H.C., H. Occ. : Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.

C.C. : Chronicles of the Crusades, London, 1848.

ثانياً : المصادر الاجنبية :

Amadi, Chroniques d' Amadi et de Strambaldi, ed. M.L. de Mas la Trie, R. 2 vols, paris, 1891-1893.

Ambroise, The Crusades of Richard Lion-Heart, ed. J.L. La Monte, New York, 1941.

Eracles, L'Estoire d' Eracles Empereur et de conquest de la terre d' Outre mer, of R.H.C., H. Occ. T. II, Paris, pp. 1-481.

Ernoul, Chronique d' Ernoul et de Bernard la Trésorier, ed. M.L. de Mas La Trie. Paris, 1871.

Joinville, J., Histoire de Saint Louis, ed. N. de Wailly, Paris, 1868.

Matthew of Westminster, The Flowers of History, 2 vols, London, 1853.

Ralph Diceto, Ymagins Historiarum, ed., W.Stubbs, 2 vols, London, 1876.

Roger de Hoveden, Annals, 2 vols, London, 1853.

Ynsauf, G., Itinerary of Richard I, and others, London, 1848.

ثالثاً : المصادر العربية :

ابن الاثير : (ت ٤٣٠هـ / ١٢٣٢م) ابو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين : «الكامل فى التاريخ» ٩ ج ، بيروت ١٩٧٨م .

ابن شداد : (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية (سيرة صلاح الدين) ، تحقيق د . جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ١٩٦٤ .

ابو شامة : (ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن : «كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» ٢ ج فى مجلد واحد ، القاهرة ١٢٨٧-١٢٢٨هـ .

ابو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) اسماعيل على محمود الملك المؤيد صاحب حماه :

«المختصر فى أخبار البشر» ٤ ج فى مجلدين ، بيروت (د.ت) .

ابن واصل : (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم :

«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» تحقيق د . جمال الدين الشيال ، ٣ ج ، القاهرة ١٩٥٣م .

عماد الدين الكاتب (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) عماد الدين محمد بن محمد بن أبوبكر :

«الفتح القسى فى الفتح القدسى» تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥ .

رابعاً : المراجع الاجنبية :

Berbard, L., The Ismailles and the Assassins,
Philadelphia, 1955.

- Cahen, C., La Syrie de Nord, Paris, 1940.
- Cartellieri, A., Richard Löwenhers im Heliligen Land, Zeitschrift, 1908.
- Grousset, R., Histoire des Croisades et du royaume France de Jerusalem, 3 vols, Paris, 1934-1936.
- Hellert, J., Histoire de L' Ordre de Assassins, Paris, 1833.
- Hodgson, M.G., The Order of Assassins, Gravenhage, 1955.
- Saunders, J., Aspects of the Crusades, University of Canterbury, 1962.

خامساً : المراجع العربية والمعربة :

- ستيفن رنسيماان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العرينى، ٣ ج، بيروت ١٩٦٧-١٩٦٩ م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : «الحركة الصليبية صفحة مشرفه فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى»، ٢ ج، القاهرة ١٩٦٣ م.

الفصل الرابع

to: www.al-mostafa.com

مدینة مرعش

ودورها فی الصراع الاسلامی الصلیبی

(۱۱۰۴-۱۱۷۲ م / ۴۹۷-۵۶۸ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

حظيت دراسة تاريخ المدن الإسلامية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ودورها في الصراع الإسلامي الصليبي ، والذي عرف اصطلاحاً باسم «الحركة الصليبية» ، حظيت باهتمام كثير من الباحثين في السنوات القلائل الماضية ، وتمشيا مع هذا الاتجاه وقع اختيارنا لموضوع هذا البحث المعنون « مدينة مرعش ودورها في الصراع الإسلامي الصليبي (١١٠٤ - ١١٧٢ / ٥٩٧ - ٥٦٨ هـ) » ، نظراً لأهمية موقع تلك المدينة في شمال الشام وعلى أطراف آسيا الصغرى ، ولهذا تصارع على السيطرة عليها إبان الفترة الزمنية موضوع البحث حكام عدة يمثلون قوى مختلفة من نورمانين ولاتينيين وسلاجقة ، بالإضافة إلى محاولات الأرمن والبيزنطيين لقرض نفوذهم عليها .

وقد وضعنا التحديد الزمني لموضوع البحث في الفترة الممتدة بين عامي ١١٠٤ - ١١٧٢ م / ٤٩٧ - ٥٦٨ هـ ، وذلك لأن التاريخ الأول يمثل بداية سيطرة الصليبيين على المدينة أما الآخر فيمثل تاريخ استعادة نورالدين محمود لها ، وفيما يلي تلك الفترة أصبح دور المدينة في الصراع الإسلامي الصليبي محدوداً .

وفي البداية تحدثنا عن موقع المدينة وأهميته ، ثم سطرنا نبذة عن أحوال مرعش منذ الفتح الإسلامي لها في القرن السابع الميلادي / القرن الأول الهجري حتى القرن العاشر الميلادي / القرن الرابع الهجري ، «أعقبنا ذلك بتوضيح أحوال المدينة قبيل مجيء الصليبيين إلى الشرق الأدنى الإسلامي ، ثم ألقينا الضوء على الدور الذي قامت به المدينة ، وأثره في الصراع الإسلامي الصليبي .

وأرجو من المولي عز وجل أن أكون قد وفقت في اعداد هذا البحث لما فيه
خير لأمتنا العربية وتاريخها المجيد .
والله ولي التوفيق ،،،

د . ابراهيم حميس ابراهيم

تقع مدينة مرعش في شمال الشام ، ويحدها جبل اللكام من جهة الغرب^(١) ، وتطل على الطريق المؤدى إلى مدينة حلب ، والثاني المتجه ناحية الجنوب الشرقى إلى مدينة الرها^(٢) ، والآخر المتجه شمالا إلى مدينة الحدث^(٣) . ولهذا فهي تقع في المنطقة التي تفصل بين الشام وبين آسيا الصغرى من جهة ، وبين الشام وأرمينية من جهة أخرى^(٤) ويتوسطها حصن منيع محاط بسورين^(٥) وأمامهما خندق^(٦) .

ولموقع مدينة مرعش أهمية تجارية لكونها تشرف على الطريق البرى المتجه من الشام إلى أراضى آسيا الصغرى ، فضلا عن الأهمية العسكرية لكونها مركزا من المراكز العسكرية الحصينة على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ولهذا حظيت المدينة باهتمام وعناية الأباطرة البيزنطيين^(٧) قبل بداية حركة الفتوح الإسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادى .

بعد أن انطلقت حركة الفتوح الإسلامية في أوائل عهد الخليفة أبى بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤ م) نجح المسلمون في عام ١٥ هـ /

(١) الحميرى . الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥١٠ .

(٢) Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in R.H.C.H. Occ. ,Vol., IV, PP. 363 - 364. (٢)

(٣) البكرى : معجم ما أستمع من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، ٢ ج ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ١٢١٥ .

(٤) الحميرى : المصدر السابق ، ص ٥٤١ .

(٥) البندادى : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والباق ، ٣ ج ، ط ١ ، بيروت ١٩٥٤ - ١٩٥٥ ج ٣ ، ص ١٢٥٩ .

(٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ٥ ج ، بيروت ١٩٧٧ ، ج ٥ ، ص ١٠٧ .

(٧) Michael The Syrian, Chronique de Michael le Syrin Patriarche Jacobite d'Antioch (١١٦٦-١١٩٩) éditée en Français Par J.B. Chabot, 3 Vols. 1905, Vol. II, PP. 425-426.

٦٣٦ م في فتح مدينة مرعش^(١) أثناء عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م) ، وذلك عندما أرسل أبو عبيدة عامر بن الجراح وهو بمدينة منبج^(٢) خالد ابن الوليد إلى ناحية مرعش ، ففتحها ، وقام باجلاء أهلها^(٣) وأخرب حصنها^(٤) ، وتنتهى بذلك السيطرة البيزنطية على مدينة مرعش ، وتبدأ المدينة مرحلة جديدة في ظل الحكم الاسلامي .

ازداد اهتمام السلطات الاسلامية بمدينة مرعش لكونها تقع في المنطقة المواجهة للحدود البيزنطية ، والتي عرفت بمنطقة الثغور^(٥) إذ سكنها جند المسلمين للتصدي لهجمات البيزنطيين وانطلقت منها الجيوش الاسلامية لمهاجمة الأراضي البيزنطية^(٦) ، وكان أول من اهتم بتحصين مدينة مرعش من الحكام المسلمين هو الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) إذ أعاد بناء الحصن الذي سبق أن أخربه خالد بن الوليد ، وأسكنه بعضاً من جنده^(٧) .

ازدادت غارات البيزنطيين على مدينة مرعش بعد موت الخليفة الأموي يزيد ابن معاوية (٦٠ - ٦٣ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٢ م) مما دفع بعض أهلها إلى مغادرتها^(٨) ، ودفع بالخليفة الأموي مروان بن محمد (٦٤ - ٦٥ هـ / ٦٨٣ - ٦٨٥ هـ) إلى إعادة بناء حصنها^(٩) ، وأسوارها^(١٠) ، وكان لتلك

(١) Michael The Syrian, op. cit., Vol. I, PP. 426 - 427.

(٢) منبج : مدينة بناحية قنسرين ومنزكورها ، وهي مدينة كبيرة عليها سوران وهي من بناء الرومان ، وكان بها قلعة وحصن ، أنظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ١٢ ج ، بيروت ١٩٧٩ م ج ٢ ، ص ٤٩٧ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ليدن ١٨٦٦ ، ص ١٨٨ .

(٥) البغدادي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٥٩ .

(٦) البلاذري : نفس الموضوع .

(٧) الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٤١ .

(٨) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٨٨ . (٩) البغدادي : المصدر السابق ، ص ١٢٥٩ .

(١٠) ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٥ ، ص ١٠٧ .

التحصينات أثر كبير في جعل المدينة بمنأى عن هجمات البيزنطيين قرابة عشر سنوات . ففي عام ٧٥ هـ / ٦٩٥ م تعرضت المدينة لهجوم البيزنطيين ، فخرجت اليهم القوات الاسلامية بقيادة دينار بن دينار حاكم مدينة قنسرين والتقى الجمعان بالقرب من مرعش ، وانتصر المسلمون ، وطاردوا البيزنطيين إلى داخل أراضيهم^(١)، ويبدو أن البيزنطيين قد أحدثوا خراباً بالمدينة لذلك توجه العباس بن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٧ م) إلى مرعش فعمرها وحصنها ونقل إليها بعض الأهالي والجنود^(٢)، وفي عام ١١٣ هـ / ٧٣١ م انطلقت القوات الإسلامية بقيادة معاوية بن هشام بن عبد الملك من المدينة للإغارة على أراضي البيزنطيين^(٣).

وفي ضوء ما سبق يتضح أن موقع مدينة مرعش في منطقة الثغور جعلها تتعرض لهجمات البيزنطيين المتكررة ، أعقبها تخريب لتحصينات المدينة ، واهتمام من قبل السلطات الأموية لإعادة بناء ما خرب فيها ، وبقيت أحوال مدينة مرعش في ظل الصراع الأموي البيزنطي على هذا المنوال . ففي بداية عهد الخليفة الأموي مروان بن محمد (١٢٧—١٣٢هـ/٧٤٤—٧٥٠م) حاصر البيزنطيون مرعش حتى صالحهم أهلها على الجلاء ، وخرجوا نحو الجزيرة وقنسرين ، وقام البيزنطيون بتخريب المدينة ثم انسحبوا منها . فبعث الخليفة مروان جيشاً لإعادة بنائها فبنيت ، وعاد إليها أهلها ، ثم خرج نحوها البيزنطيون مرة أخرى في أواخر عهد هذا الخليفة الأموي وأخربوها^(٤).

أما في العصر العباسي فلم يطرأ تغيير على دور المدينة في ظل الصراع

(١) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٨٨ — ١٨٩ ، خليفة بن حياط : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : أكرم ضياء العمري ، ج٢ ، بغداد ١٩٦٧ ، ج١ ص ٢٧٠ ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج١٣ ، بيروت ١٩٧١ ، ج٧ ، ص ٢١٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٤ ، ص ٩١ .

(٢) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٨٩ ، الحميري : المصدر السابق ص ٥٤١ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١٧٦ .

(٤) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٨٩ ، الحميري : المصدر السابق ص ٥٤١ — ٥٤٢ .

الاسلامى البيزنطى ، إذ استمرت هجمات البيزنطيين عليها ، واستمرت عناية الخلفاء العباسيين باعادة بناء تحصينات المدينة وشحنها بالجند . ففي عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م) تم اصلاح ما خربه البيزنطيون ، وزاد عدد سكانها بعد ما أجزل لهم الخليفة المنصور العطاء لتشجيعهم على الإقامة فيها ، أما الحامية فقد زادت أعداد أفرادها في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م)^(١) .

ظلت مدينة مرعش تحت سيادة الحكم الاسلامى حتى القرن العاشر الميلادى / القرن الرابع الهجرى ، حيث أخذت الخلافة العباسية تنتقل يوماً بعد يوم من سبىء إلى أسوأ^(٢) ، بينما أخذت الامبراطورية البيزنطية فى معالجة شئونها الداخلية والخارجية^(٣) وتتجه إلى التوسع على حساب الأراضى الإسلامية فى الشرق^(٤) ، وفى عام ٩٤٩ م / ٣٣٧ هـ توجه القائد البيزنطى ليوفوقاس Leo Phocas بقواته إلى مرعش واستولى عليها^(٥) من الحمدانيين ، وباءت جهود سيف الدولة الحمدانى للتصدى للبيزنطيين ، واستعادة المدينة بالفشل^(٦) . وبذلك عادت المدينة إلى الحكم البيزنطى بعد أن ظلت فى حوزة المسلمين قرابة ثلاثة قرون .

اختلف الدور الذى قامت به مدينة مرعش فى ظل الحكم البيزنطى قبيلاً

(١) البلاذرى : نفس الموضوع .

(٢) عن بداية سوء تلك الأوضاع راجع : الطبرى : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٠٨ - ٢٥٢ .

(٣) Ostrogorowsky, G. : History of the Byzantine state, Tr. by Joan Hussey, Oxford 1956, P. 239.

(٤) Canard, M., Histoire de le Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie, Paris, 1953, (٤) P. 732.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٨٠ .

(٦) Canard, op. cit, PP. 761 - 769; Schlumberger, G., Un Empereur Byzantin au dixième Siècle. Nicephore Phocas, Paris, 1890, PP. 40 - 41.

عجىء الصليبيين إلى منطقة الشرق الأدنى الإسلامي عن دورها السابق عندما كانت في حوزة المسلمين ، وذلك بسبب تغير ظروف المنطقة ، فبعد أن كان دورها محصوراً في كونها تقع في منطقة الثغور على الحدود الإسلامية البيزنطية والتي شهدت منذ الفتح الإسلامي للمنطقة في القرن السابع الميلادي / القرن الأول الهجري حتى القرن العاشر الميلادي / القرن الرابع الهجري اغارات كل من الجانبين على الآخر والتي كان من أثرها تعرض المدينة للتخريب ، وإعادة البناء عدة مرات . أما في آخريات القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلادي / أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري أصبحت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ميداناً للصراع بين القوى الإسلامية المختلفة وبعضها البعض من جهة ، وبين القوى الإسلامية وبين البيزنطيين من جهة أخرى ، وكان من الطبيعي أن تنغمس مدينة مرعش في هذا الصراع بعد أن انتقلت تبعيتها إلى السيادة البيزنطية .

ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، وأخذوا في توسيع رقعة دولتهم على حساب المسلمين والبيزنطيين في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وزاد نفوذهم حتى أصبحوا أوصياء على الخلافة العباسية (١) . وأمام التهديد السلجوقي لملكات البيزنطيين في الشام وقلقية ، خرج الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV (١١٦٨ - ١٠٧١ م / ٤٦١ - ٤٦٣ هـ) بجيشه صوب الحدود الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية عام ١٠٦٩ م / ٤٦٢ هـ ، واسترد مدينة منبج (٢) ، ثم توجه إلى مدينة مرعش ، وقام بتعيين أحد القادة الأرمن في جيشه ويدعى فيلارتيوس براخاموس (٣) *Philaritus Brachamius*

(١) عن ظهور الأتراك وتوسعهم راجع : الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق - بيروت ١٩٧٨م ، ص ٧ - ١١ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٠ .

(٣) يطلق عليه بعض المؤرخين العرب اسم « الفردوس » و « الفلادروس » . انظر : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٣٨ ، ٤٢٧ ؛ ابن العديم : زبدة الخلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، ٣ | ج ، دمشق ١٩٥١ م ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

حاكما على المدينة (١)

تولى فيلاريتوس حكم مرعش تحت السيادة البيزنطية في وقت أخذت فيه الامبراطورية البيزنطية تعاني من الضعف ، وتقلص حدودها الشرقية على أيدي السلاجقة ، وتتلقى الضربات المتلاحقة . إذ منيت بهزيمة كبرى على أيدي السلاجقة في موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١ م / ٤٦٣ هـ (٢) ، وأما في الغرب الأوربي فقد استولى النورمان بزعامة روبرت جويسكارد على مدينة بارى التي تعتبر آخر معاقل البيزنطيين في جنوب إيطاليا (٣) .

كان على فلاريتوس في ضوء المتغيرات الجديدة التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، وبالامبراطورية البيزنطية أن يحدد علاقته بالبيزنطيين من جهة وبالمسلمين من جهة أخرى . فبالنسبة لموقفه من البيزنطيين ، أظهر فلاريتوس ما يمكنه الأرمن من كراهية للبيزنطيين (٤) ، ورفض الاعتراف بالامبراطور البيزنطي ميخائيل دو كاس (٥) (١٠٧١-١٠٧٨ م / ٤٦٣-٤٧٠ هـ) ، — واستولى على بعض المدن والحصون التي كانت تابعة للبيزنطيين

(١) كان فيلاريتوس من بين الأرمن الذين التحقوا بالخدمة في الجيش البيزنطي وارتقى إلى رتبة قائد منطقة Domestic ، ثم أصبح حاكما على مدينة مرعش . راجع :

Michael the Syriac, op. cit., Vol. III, P. 173; Anna comnena, The Alexiad, English trans. by Elizabeth Dawes, London, 1928, P. 153.

(٢) عن تلك المعركة راجع : ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ١٣٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٥ — ٦٧ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٨٥ ؛ الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، وأيضا :

(٣) Vasiliev, A., Histoire de L'Empire Byzantin, 2Vols., Paris, 1932, I, PP. 467 - 470;

Ostrogorowsky, op. cit., P. 304.

Vasiliev, op. cit., I, P. 474.

(٤) عن أسباب تلك الكراهية راجع :

Mattieu d'Edesse, Chronique, in R.H.C. - Doc. Arm. Vol. I, PP. 72, 75, 113.

(٥) Anna Comnena, op. cit., PP. 152 - 153; Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, P. 173.

وقتذاك ، ومنها خرتبرت (١) وابلستين (٢) والمصيصة (٣) ورعبان (٤) وطرسوس (٥) وعين زربة (٦) وملطية (٧) والرها في الفترة فيما بين عامي ١٠٧٧-١٠٧٨ م / ٤٦٩-٤٧٠ هـ ، كما خضع له كل من الزعيم الأرمني روين حاكم المنطقة التي تقع شمال شرق مدينة سيس بجبال طوروس ، وأيضا الزعيم الأرمني أوشين حاكم مدينة أذنة (٨) ، هذا ، بالإضافة إلى سيطرته على مدينة أنطاكية (٩) ، وبذلك وضع فلاريتوس أساس دولة أرمنية جديدة في

(١) خرتبرت : حصن يعرف أيضا بحصن زياد ، يقع في أقصى ديار بكر من بلاد الشام بالقرب من ملطية ويفصل بينهما نهر الفرات : راجع ، ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

(٢) ابلستين : مدينة في بلاد الروم تقع بالقرب من مدينة أسوس ، ويقال أنها مدينة أصحاب الكهف ، راجع : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٣ ؛ البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٣) المصيصة : مدينة على شاطئ نهر جيحان في شمال الشام ، وتقع بالقرب من مدينة طرسوس ، راجع ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٤ ؛ البغدادي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٨٠ ؛ البكري : المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٢٣٥ .

(٤) رعبان : مدينة في منطقة الثغور تقع بين مدينتي حلب وميساط بالقرب من نهر الفرات ، راجع : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٥١ ؛ البغدادي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢١ .

(٥) طرسوس : مدينة بالثغور الجزرية في شمال الشام تقع بين أنطاكية وحلب وبالقرب من مدينة أذنة . راجع : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٤ ، ص ٢٨ ؛ البغدادي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٨٨٢ ؛ البكري : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٨٩٠ .

(٦) عين زربة : بلد في شمال الشام تقع بالقرب من المصيصة . راجع : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ؛ البغدادي : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٩٧٧ .

(٧) ملطية : مدينة بناها الاسكندر ، وجامعها من بناء الصحابة ، وهي من بلاد الروم وتناخم الشام . راجع : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٩٢ ؛ البغدادي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٠٨ .

(٨) أذنة : بلد من الثغور تقع بالقرب من المصيصة وبين حمى قيد عشرين ميلا ، راجع : البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨ .

(٩) Anna Comnena, op. cit., p. 153; Micheal the Syriean, op. cit., Vol. III, pp. 172 - 173.

جنوب شرق آسيا الصغرى (١) والتساؤلات التي تطرح نفسها هنا تتمثل في: هل كان فلاريتوس يهدف من وراء قيامه بتلك الأعمال الاستقلال التام عن الإمبراطورية البيزنطية؟ وهل كتب لتلك الدولة الأرمنية — وهي في طور التأسيس — البقاء والاستمرار؟ .

يتضح من أعمال فلاريتوس السابقة ، والتي تعتبر انعكاسا لكراهية الأرمن للبيزنطيين أن فلاريتوس كان يهدف بالفعل إلى إقامة دولة مستقلة عن الإمبراطورية البيزنطية مستغلا ضعفها من جهة ، والصراع بينها وبين السلاجقة من جهة أخرى ، وحالة الاضطراب التي سادت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي وقتذاك من جهة ثالثة ، ولكن تضافرت ضده عدة أسباب أدت في النهاية إلى فشل مشروعه ، وتتمثل فيما يلي :

أولا : أن فلاريتوس لم يكن محبوبا من رعاياه المسيحيين وأيضا من بعض جنده (٢)

ثانيا : أن السلاجقة كانوا لا يمكن أن يفضوا البصر عن تلك الامارة الأرمنية التي كانت تعترض طريق توسعهم إلى الشام (٣)

ثالثا : أن الامبراطورية البيزنطية — وان كانت تمر بمرحلة الانكماش — إلا أنها لن تتنازل في سهولة ويسر عن حقها الشرعي في السيادة على المناطق التي استولى عليها فلاريتوس (٤) .

رابعا : مؤامرة ابنه وبعض قاداته ضده (٥) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ٢ ج ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٣٨ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٨٧ — ٨٩ .

(٣) عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٤) Anna Comnena, op. cit., p. 153.

(٥) Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, P. 173.

نتيجة للأسباب السابقة رأى فلاريتوس ضرورة وضع أسس جديدة لسياسته الخارجية تقوم على معاداة البيزنطيين ، وفي الوقت نفسه يعمل على التقرب من الزعماء المسلمين في المنطقة المحيطة بدولته الناشئة كي يوفر لها سبيل البقاء والاستمرار . لذلك أخذ فلاريتوس يتودد للبيزنطيين ، واعترف بالإمبراطور نقفور الثالث Nicephore (١٠٧٨ - ١٠٨١ م / ٤٧١ - ٤٧٤ هـ) ، فأقره الإمبراطور على ما تحت سيطرته من ممتلكات ، كما سارع فلاريتوس بالاعتراف بالإمبراطور الكسيس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨ م / ٤٧٤ - ٥١٢ هـ) (١) .

أما عن علاقته بالزعماء المسلمين ، فقد أخذ فلاريتوس يتقرب من شرف الدولة مسلم بن عقيل أمير الموصل ، فجعله الأخير يتولى حكم أنطاكية بوصفه نائبا عنه ، ويدفع في مقابل ذلك أموال الجزية (٢) ، كما قام نائب فلاريتوس في حكم الرها بنقش السكة باسم أمير الموصل (٣) ، ولم يكتف فلاريتوس بتلك العلاقة مع شرف الدولة مسلم ، إنما سارع إلى عاصمة الخلافة العباسية وأعلن خضوعه وولائه للخليفة العباسي ، واعتناقه للدين الإسلامي (٤) .

لم تثمر جهود فلاريتوس في المحافظة على دولته الأرمنية الناشئة ، إذ بدأ عقدها ينفرط في آخريات حياته . ففي عام ١٠٨٤ م / ٤٧٧ هـ استولى سلطان سلاجقة الروم سليمان بن قتلмыш (٤٧٤ - ٤٧٩ هـ / ١٠٨١ - ١٠٨٦ م) على مدينة أنطاكية ، بعدما كاتبه أبن فلاريتوس وبعض الجند في المدينة

(١) Anna Comnena, op. cit., P. 153.

(٢) ابن الأثير المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ، وأيضا :

Michéal the Syriean, op. cit, Vol. III, P. 173

(٣) ابن الأثير المصدر السابق . ج ١٠ . ص ١٢٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٩

(٤) ابن الأثير . المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٢٧ وأيضا :

Anna Comnena, Loc. cit. ;

Michéal the Syriean, Loc. cit.

يستدعونه لامتلاكها^(١) ، كما سيطر القائد السلجوقي محمد بن جبج على قلعة خرتبرت^(٢) . وبعد وفاة فلاريتوس في مدينة مرعش عام ١٠٩٠ م / ٤٨٣ هـ ، تفككت الدولة الأرمينية الناشئة ، إذ سيطر سلاجقة الروم على مدينتي طرسوس^(٣) ، والرها^(٤) ، بينما اقتسم قادة فلاريتوس من الأرمن بقية المدن . فتولى كواسيل حكم مدينة رعبان ، وحصل جيزريل على ملطية ، أما مرعش فكانت من نصيب القائد ثاتول^(٥) . Thatoul . وبذلك ينتهي الدور الذي قام به حاكم مدينة مرعش قبيل مجيء الصليبيين إلى منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، وتمثل في إقامة دولة أرمنية ، تمزقت بعد وفاته ، واقتسمها بعض قادته من الأرمن الذين مهدوا الطريق للصليبيين على مشارف الشام^(٦) .

عندما بدأت الحركة الصليبية ، وسار الصليبيون في حملتهم المعروفة بالصليبية الأولى في اتجاه الشرق الأدنى الإسلامي ، واخترقوا سلسلة جبال طوروس ، توجهوا في ١٣ أكتوبر ١٠٩٧ م / ٢٤ شوال ٣٩١ هـ إلى مدينة مرعش فاستقبلهم حاكمها ثاتول ومن معه من الأرمن بالمودعة والنحاب ، وقدموا لهم ما يحتاجون إليه من مؤن وزاد^(٧) ، فاطمأن الصليبيون إلى ثاتول ، وأقروه في منصبه كحاكم على المدينة في ظل التبعية البيزنطية^(٨) ، .

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٠-٩٦ .

Anna Comnena, Loc. cit., P. 153.

(٢) ابن الأثير : نفس الموضع ، ج ١٠ ، ص ٤٢٧ .

(٣) William of Tyre, A History of Deeds done beyond the sea, 2Vols, Trans by Emily Babcock A.C. Krey, New York, 1943, Vol. II, P. 319.

(٤) ابن الأثير : نفس الموضع .

(٥) Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, pp. 173, 186-187.

(٦) عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٧) Fulcher of Chartres, A History of the expedition of Jerusalem (1095-1127), Tennessee, U.S.A., 1969, P. 89.

(٨) Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, P. 187.

الصلبيون في مرعش خمسة أيام ، وبعد أن تزوجوا بالمؤمن غادروها في ١٧ أكتوبر / ٢٧ شوال حيث انقسم الصليبيون إلى قسمين : الأول بقيادة بلدوين دى بويون وتوجه إلى الشرق جنوب مدينة الرها (١) ، والثاني ويمثل غالبية الصليبين قد توجه ناحية مدينة أنطاكية (٢) .

بقاء ثاتول حاكماً على مرعش حتى خروج الصليبين منها تظل المدينة تحت السيادة البيزنطية التي بدأت منذ منتصف القرن العاشر الميلادي / منتصف القرن الرابع الهجري ، ويكون الصليبيون قد أقروا بتبعيةها للبيزنطيين ، ولكن سرعان ما تعرضت تلك السيادة البيزنطية للخطر عندما حاول أمير أنطاكية النورمانى بوهمند الأول Bohemond I (١٠٩٨-١١٠٤ م / ٤٩١-٤٩٧ هـ) في عام ١١٠٠ م / ٤٩٣ هـ السيطرة على مدينة مرعش ، وانتزاعها من يد الصليبين ، ولكنه لم ينجح في محاولته ، وكل ما استطاعه السيطرة على المنطقة المكشوفة المحيطة بالمدينة (٣) . ولعل التساؤل الذى يطرح نفسه في تلك الحادثة هو : لماذا حاول الأمير بوهمند الاستيلاء على مدينة مرعش ، بالرغم من أن الصليبين قد أقروا بتبعيةها للبيزنطيين ؟ .

يشير كل من ميخائيل السرياني ، والمؤرخ متى الرهاوى إلى أن جيرئيل حاكم ملطية هو الذى حرض الأمير بوهمند على الاستيلاء على مدينة مرعش ، وذلك بسبب النزاع الذى قام بينه وبين ثاتول حاكم مرعش ، وأن جيرئيل كان يخشى هجوم ثاتول على مدينته (٤) . ولكن في الحقيقة إذا كان هذا التحريض يعتبر سبباً مباشراً ، فهناك أسباباً أخرى غير مباشرة تتمثل في العداء القديم بين

Fulcher of Chartres, *Loc. cit.*

(١)

(٢) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ابن الأثير : المصدر السابق : ج ١٠ ، ص ٢٧٤ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، وأيضاً :

William of Tyre, *op. cit.*, Vol. I, P. 204.

Mattieu d'Esse, *op. cit.*, P. 53.

(٣)

Micheal the Syriac, *op. cit.*, Vol. III, P. 187.

(٤)

Mattieu d'Edesse, *op. cit.*, P. 50.

البيزنطيين والنورمان بصفة خاصة ، وبين الصليبيين وبين البيزنطيين بصفة عامة (١) ، والتي كشفت عنها أحداث الحروب الصليبية .

وكيفما كان الأمر ، فعندما شعر البيزنطيون بخطورة هجوم الأمير بوهمند على مدينة مرعش ، وعزم الصليبيون على الاستيلاء عليها ، أرسل الإمبراطور الكسيس قائد بوتوميتس إلى المدينة للدفاع عنها ، ولم يمكث القائد البيزنطي بضعة أيام حتى استدعاه الإمبراطور إلى القسطنطينية ، فغادر بوتوميتس مرعش بعد ما ترك بها حامية بيزنطية لمواجهة التهديد الصليبي (٢) ، واستغل الصليبيون تلك الفرصة ، فتوجه الأمير النورمانى بوهمند الأول ، يصاحبه الأمير اللاتينى جوسلين دى كورتناى Joscelin de Courtenay حاكم تل باشر إلى المدينة بقواتهما ، وضربوا الحصار حولها ، وعندما شعر ثاتول بعجز المدينة عن المقاومة اضطر إلى تسليمها لجوسلين فى عام ١١٠٤ م / ٤٩٧ هـ ، وسمح له الأخير بالتوجه إلى القسطنطينية (٣) ، وتنتهى عندئذ السيطرة البيزنطية على مرعش ، وتنتقل بتبعيتها إلى الصليبيين لتبدأ مرحلة جديدة فى الصراع الإسلامى الصليبي حولها .

تسلم جوسلين دى كورتناى مدينة مرعش بوصفه نائبا لبلدوين دى بوج Baldwin du Boury الذى كان حاكما على الرها ، ثم أصبح ملكا على بيت المقدس (٤) (١١١٨-١١٣١ م / ٥١٢-٥٢٥ هـ) ، وبذلك أصبحت مدينة مرعش تتبع كونتية الرها فى ظل السيادة الصليبية ، ولكن نظرا لوقوع كل من بلدوين دى بوج وجوسلين دى كورتناى أسيرين فى قبضة المسلمين بعد أن اشتركا فى معركة حارم عام ١١٠٤ م / ٤٩٧ هـ (٥) ، أصبحت الرها

(١) عن هذا العداء راجع : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية ١٩٦٧ م .

(٢) Anna Comnena, op. cit., pp. 290 - 292.

(٣) Mattieu d'Edesse, op. cit., p. 75.

(٤) William of Tyre, op. cit., Vol. I, pp. 287, 369, 522.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., Vol. I, P. 459.

ومرّش تحت وصاية تنكريد الأول Tancred I أمير أنطاكية (١١٠٤ - ١١١٢ م / ٤٩٧ - ٥٠٦ هـ) ، فقام تنكريد بتعيين ابن عمه وصهره ريتشارد Richard نائبا عنه في حكم كل من الرها ومرّش (١) ، وتميز حكم ريتشارد بالقسوة وابتزاز الأموال مما أدى إلى نفور سكان المدينتين ، وخاصة الأرمن من حاكمهم الصليبي (٢) ، كما زادت تلك الكراهية عندما قام تنكريد بتجنيد عدد من سكان المدينة لمواجهة العجز من قلة المحاربين في إمارته (٣) .

ظلت الرها ومرّش تحت وصاية تنكريد قرابة أربع سنوات ، إلى أن تم إطلاق سراح بلدوين دى بوج في عام ١١٠٨ م / ٥٠٢ هـ ، ورفض تنكريد إعادة الرها إليه ، عندئذ لجأ بلدوين إلى الاستعانة بالزعماء الأرمن من قليقية ومن بينهم كواسيل حاكم كيسوم ، واشين حاكم قليقية ، فلبوا النداء وتوجهوا بقواتهم إلى تل باشر لمناصرة بلدوين في نزاعه مع تنكريد ، وعندئذ تدخل برنارد Bernard بطريرك أنطاكية اللاتيني لإنهاء الخلاف بين الزعيمين ، وأقنع تنكريد بضرورة إعادة الرها إلى بلدوين ، فوافق الأول ، وأمر بسحب نائبه ريتشارد من المدينة (٤) .

استمر ريتشارد يحكم مدينة مرّش حتى عام ١١١١ م / ٥٠٥ هـ بوصفه نائبا عن تنكريد حاكم أنطاكية ، وشارك الصليبيين في مواجهة الحلف الإسلامي

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٦١ ، وأيضا :

Radulph of Caen, Gesta Tancredi Sicilise Regis in Expeditione Hierosoly mitana, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III, P. 714; Albert d'Aix : op. cit., P. 620. Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, P. 195.

Mattieu d'Edesse, op. cit., 79;

(٢)

Albert s'Aix, op. cit., p. 648.

Radulph of Caen, Loc. cit.

(٣)

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., p. 648;

Mattieu d'Edesse, op. cit., pp. 77 - 79.

بقيادة مودود أتابك الموصل ، والتقى الجمعان أمام مدينة شيزر في العام نفسه ، وان كان اللقاء لم يؤد إلى حدوث اشتباك عسكري بينهما (١) ، وفي الوقت نفسه استغل كواسيل فرصة انشغال تنكريد ونائبه ريتشارد بمواجهة الحلف الاسلامي ، واستولى على مدينة مرعش ، وبذلك اتسع نفوذه ، وأصبح يسيطر على كيسوم ورعبان بالاضافة إلى مرعش (٢) . والتساؤلات التي تطرح نفسها هنا : لماذا لم يطلب بلدوين دي بوج من تنكريد إعادة مدينة مرعش إليه أسوة بمدينة الرها ؟ ، ولماذا طال انتظار بلدوين على تلك المطالبة حتى عام ١١١١م / ٥٠٥ هـ إلى أن استولى كواسيل الأرميني على مدينة مرعش ؟ ولماذا قام كواسيل حليف بلدوين بالأمس القريب — بالاستيلاء على المدينة عام ١١١١م / ٥٠٥ هـ ، وهو يعلم أنها كانت من ممتلكات حليفه السابق ؟ .

لم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى أن بلدوين دي بوج قد طلب من تنكريد إعادة مدينة مرعش إليه أسوة بمدينة الرها ، وأمام صمت المصادر في هذا الجانب ، فاننا نضع للاجابة على التساؤل الأول احتمالا وهو أن بلدوين دي بوج قد اكتفى بالمطالبة — في بداية الأمر — بمدينة الرها نظرا لأهميتها التي لاشك أنها تفوق أهمية مدينة مرعش بالنسبة له ، وذلك اعتقادا منه أن استرداد الرها سيتلوها في القريب العاجل استرداد مدينة مرعش ، ولكن العلاقة بينه وبين تنكريد في الفترة التي تلت استرداد الرها عام ١١٠٨ م / ٥٠٢ هـ ، كانت

(١) عن تلك المواجهة راجع : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ؛ اسامة ابن مقعد : الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، برنستون ، الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٠ م ، ص ٦٨ — ٦٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٤٨٦ — ٤٨٧ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ؛ وأيضا :

Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 201 - 203;

Micheal the Syrien, op. cit. Vol. III, P. 205;

Albert d'Aix, op. cit., PP. 683 - 684;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, P. 489.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٩٢ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٧ ، بيروت ١٩٧١ م ، ج ٥ ، ص ٤٢ ؛ وأيضا :

Mattieu d'Edesse, op. cit., PP. 99 - 100.

على غير وفاق ، إذ بدأ الصراع بين بلدوين دى بورج يسانده تابعه جوسلين دى كورتناى حاكم تل باشر ، وجاولى أتابك الموصل من جهة ، وبين تنكريد يسانده صهره ريتشارد حاكم مرعش ، ورضوان بن تنش ملك حلب (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١١٣ م) من جهة أخرى ، وقد انتهى هذا الصراع بانتصار الفريق الثانى^(١) . أما عن الاجابة عن التساؤل الثانى فتمثل فى أن بلدوين دى بورج ظل حتى عام ١١١١ م / ٥٠٥ هـ لا يطالب تنكريد باعادة مدينة مرعش ، لأنه كان فى موقف المنهزم ولايستطيع أن يطالب انتصر باعادة تلك المدينة ، هذا بالاضافة إلى انشغال بلدوين فى تلك الفترة فى مواجهة الهجمات الاسلامية المتكررة على الرها وتل باشر^(٢) . وبالنسبة للإجابة عن التساؤل الثالث ، فقد كان لسياسة التعسف التى اتبعها بلدوين دى بورج ضد الأرمن فى الرها^(٣) ، كان لها أكبر الأثر فى تقلب كواسيل حاكم كيسيوم الأرمينى ، الذى غضب لسوء معاملة بنى بلدته ، فهاجم مرعش فى عام ١١١١ م / ٥٠٥ هـ واستولى عليها .

كان استيلاء كواسيل على مدينة مرعش ، وازدياد نفوذه فى قليقية بمثابة تهديد لامارة أنطاكية ، وفى الوقت نفسه أثار غضب حاكم الرها الذى كان يتحين الفرصة المناسبة لاسترداد مرعش ، ولهذا تقاربت وجهات النظر بين بلدوين دى بورج وبين تنكريد ، واتفقا على محاربة كواسيل ، مما دفع الأخير

(١) عن هذا الصراع راجع : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٦٤ - ٤٦٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥٣ ؛ وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., P. 649;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, 474.

(٢) عن تلك الهجمات راجع : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٠ ، ١٧٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٨٦ ، ٤٩٢ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., pp. 672, 680 - 681; Mattieu d'Edesse, op. cit., pp. 100 - 105; Michael the Syriean, op. cit., Vol. III, p. 196.

Mattieu d'Edesse, op. cit., pp. 101, 268.

(٣)

إلى طلب الحماية من آقسنقر البرسقى حاكم الموصل^(١) . وبينما كان تنكريد يستعد للزحف إلى ممتلكات كواسيل اشتد عليه المرض في الطريق ، فعاد إلى أنطاكية^(٢) ، ومات في ديسمبر ١١١٢ م / جمادى الآخرة ٥٠٨ هـ^(٣) ، وانتهت بذلك حملته المرتقية .

لم تشر المصادر التي بين ايدينا إلى تاريخ استرداد بلدوين دي بوج لمدينة مرعش ، وإنما أكتفت بالإشارة إلى أن جفرى الراهب Gaufridus Monacus كان يتولى حكم المدينة عام ١١١٩ م / ٥١٣ هـ بوصفه نائباً لجوسلين دي كورتناى حاكم الرها^(٤) . ولما كان جوسلين قد تولى حكم الرها عام ١١١٨ م / ٥١٢ هـ ليحل محل بلدوين دي بوج حاكمها الأسبق ، والذي أصبح ملكاً على مملكة بيت المقدس اللاتينية تحت اسم بلدوين الثاني^(٥) (١١١٨ - ١١٣١ م / ٥١٢ - ٥٢٥ هـ) ، يكون بلدوين قد استرد المدينة في الفترة من عام ١١١٢ م / ٥٠٦ هـ حتى عام ١١١٨ م / ٥١٢ هـ ، ويبدو أنه استردها في الفترة التي شهدت حملته على منطقة قليقية والمحصورة بين عامي ١١١٥ - ١١١٢ م / ٥٠٩ - ٥١١ هـ^(٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد عادت مرعش تتبع كونتية الرها وحاكمها جوسلين دي كورتناى ، وفي سبتمبر ١١٢٢ م / رجب ٥١٦ هـ وقع جوسلين

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٠١ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٣) Fulcher of Chartres, op. cit., p. 425; William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 492.

(٤) Walter The Chancellor, Bella Antiochena, in R.H.C. H-Occ. Vol. V., P. 108.

Fulcher of Chartres, op. cit., PP. 227 - 230;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, P. 529.

(٥) Fulcher of Chartres, op. cit., P. 178;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, P. 369, 522.

(٦) Mattieu d'Edesse, op. cit., pp. 116 - 117.

أسيرا في قبضة بلق غازى بن بهرام صاحب خرتبرت (١) ، لذلك اسند الملك بلدوين الثانى إدارة الرها فى أبريل ١١٢٣ م صفر ٥١٧ إلى جفرى الراهب حاكم مرعش ، وظل جفرى يقوم بتلك المهمة ، وفى الغارات على القزوين الإسلامية القريبة من الرها (٢) إلى أن نجح جوسلين فى الفرار من سجنه بقلعة خرتبرت ، بينما ظل الملك بلدوين الثانى بداخل القلعة إلى أن جاءت القويوت الإسلامية بقيادة بلق بن بهرام ، وتمكنت من أسر بلدوين للمرة الثانية (٣) ، وتم نقله إلى قلعة حران (٤) .

كان على جوسلين العمل على فك أسر الملك الصليبي ، ولكن عندما علم أن المسلمين قد نقلوه إلى القلعة الحصينة حران ، أخذ فى شن الغارات على المناطق القريبة من حلب ، وقام بأعمال السلب والنهب والتدمير (٥) ، وبشاركه

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق : ج ١٠ ، ص ٣٩٣ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ ، وأيضا .

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 240;

Mattieu d'Edesse, op. cit., p. 131;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 540.

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 237;

(٢)

Mattieu d'Edesse, op. cit., 131;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 537.

(٣) تم أسر الملك بلدوين الثانى للمرة الأولى على يد بلق بن بهرام فى أواخر أبريل ١١٢٣ م / أوت صفر ٥١٧ هـ ، راجع : ابن القلانسي: المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦١٣ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، وأيضا :

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 246;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 538.

(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٦١٣ ؛ ابن العديم : المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢١٣ ، وأيضا : (٢)

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 248;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 543.

(٥) عن تلك الغارات راجع : ابن القلانسي: المصدر السابق ص ٢١١ — ٢١٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٣ — ٢١٦ ، وأيضا =

في تلك الغارات نأه جفري ، ولقد دفعت تلك الغارات القوات الإسلامية بقيادة بلك بن يبرام للتصدي لجوسلين ونأه ، وجرى الاشتباك الأول بين الجانبين بالقرب من مدينة عزاز^(١) في يناير ١١٢٤م / ذي القعدة ٥١٧ هـ ، وانتهت المعركة بانتصار غير حاسم للصليبيين ، فتجدد الاشتباك بينهما مرة أخرى في أبريل ١١٢٤م / صفر ٥١٨ هـ وكان النصر في تلك المعركة لصالح المسلمين ، ولما كانت المعركتان السابقتان لم تحسما النصر لأحد الفريقين ، فكان اللقاء الحاسم بينهما بالقرب من مدينة متيج في مايو / ربيع الأول من العام نفسه ، وفيه تمكنت قوات بلك بن يبرام من إلحاق الهزيمة بالصليبيين ، وقتل الكثير من فرسان الفرنج ، كان من بينهم جفري حاكم مرعش^(٢) .

بقتل حاكم مرعش عام ١١٢٤م / ٥١٨ هـ ، عادت إدارة المدينة إلى جوسلين دي كورتناي حاكم الرها وتل باشر ، وظلت مرعش تحت إدارته حتى توفى في عام ١١٣١م / ٥٢٦ هـ ، وخلفه ابنه الصغير جوسلين الثاني^(٣) ، في وقت بدأت فيه النقطة العربية الإسلامية — التي كان من بين روادها الأول مودور واقستقر — تقوى وتتمو على يد عماد الدين زنكي حاكم الموصل وحلب .

بعد أن تولى جوسلين الثاني حاكم إمارة الرها عام ١١٣١ / ٥٢٦ هـ قام بتعيين أحد قادة الفرسان — الذين عملوا في خدمة أبيه — ويدعى بلنويين

Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 248 - 249;

William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 542.

(١) عزاز : بلدة تقع في شمال حلب ، طيبة الهواء ، غنية الماء ، صحيحة التربة ، راجع : البقلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٢٧ .

(٢) عن تلك المعارك راجع : ابن التالاس : المصدر السابق ، ص ٢١٢ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦١٩ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢١٦ — ٢١٠ ، وأيضا :

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 249;

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 16.

Michael the Syrian, op. cit., Vol. III, p. 232;

William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 52 - 53.

(٣)

حاكماً على مرعش وكيسوم^(١) في وقت فيه كفة الميزان في الصراع الصليبي الإسلامي تميل لصالح المسلمين ، وصار هدف الصليبيين على حد قول المؤرخ ابن الأثير : « حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع »^(٢) ، وقد انعكس هذا التغير على إمارة الرها ، إذ بدأت تواجه الضربات من قبل المسلمين والأرمن . ففى عام ١١٣٥ / ٥٢٩ هـ قام الأمير الأرمني ليو الأول Leo I بالتحالف مع أمير الدانشمند محمد الثاني ابن غازى ، وهاجم قلعة سرفنتيكار^(٣) ، الخاضعة لنفوذ بلدوين حاكم مرعش وكيسوم ، ونجح ليو في الاستيلاء على القلعة دون أن يتحرك بلدوين للدفاع عنها^(٤) ، وفى عام ١١٣٦ م / ٥٣٠ هـ قام الأفشين التركي — قائد سيف الدين سوار نائب عماد الدين زنكى في حلب — بشن الغارات على المناطق القريبة من مرعش وكيسوم ، وعجز بلدوين عن مدافعتة^(٥) ، ولم يكتف حاكم مرعش وكيسوم بأنه عجز عن حماية المناطق الخاضعة له ، وإنما أقحم نفسه في الخلف الذى قام بين ريموند الثاني أمير أنطاكية (١١٣٦ — ١١٤٩ م / ٥٣٠ — ٥٤٤ هـ) وبين ليو الأرمني ، إذ شارك أمير أنطاكية في حملته عام ١١٣٦ م / ٥٣٠ هـ ضد ليو الأرمني ، ولكن إنتهت تلك الحملة بنجاح ليو في التصدى لها وتحقيق الانتصار عليها بفضل مؤازرة ابن أخته جوسلين الثاني الذى ناشد الطرفين إلى نبذ الحروب ، وعقد المفاوضات ، فوافق ليو على أن يجتمع ببلدوين حاكم مرعش ، ولكن الأخير غدر بالأمير الأرمني ، وقبض عليه ، وأرسله أسيراً إلى

Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, pp. 230 - 121;

(١)

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 158.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٦٣ .

(٣) سرفنتيكار : قلعة حصينة في بلاد الأرمن ، تقع بالقرب من البر الجنوبي لنهر جيحان ، وعلى بعد أربعة أميال من تل حمدان ، راجع : القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ١٤ ج ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٣ م ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .

Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, pp. 231 - 233.

(٤)

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١ —

٢٦٢ ، وأيضاً :

Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, p. 244.

أنطاكية^(١) . والتساؤل الذى يطرح نفسه هنا هو : لماذا سمح جوسلين الثانى لثابته فى حكم مرعش وكيسوم أن ينتهج سياسة مخالفة لميوله ، ويعادى خاله الأمير الأرمينى ؟ وعند الاجابة على هذا التساؤل يجب أن نوضح أن جوسلين الثانى كان يتولى امارة الرها باعتباره نائبا عن الملك الصليبي فولك Fulk (١١٣١ — ١١٤٤ م / ٥٢٦ — ٥٣٩ هـ) الذى كان راضيا عن تلك الحملة الموجهة ضد ليو الأرمينى ، ولم يكن بوسع جوسلين الثانى أن يخالف رغبات الملك الصليبي^(٢) .

على أية حال ، نتيجة لغدر بلدوين حاكم مرعش بالأمير الأرمينى قام الأمير محمد الثانى بن غازى بشن الغارات على المناطق المحيطة بمرعش وكيسوم ، وعاث فيها فساداً وتدميراً^(٣) .

بدأ الصليبيون يشعرون بخطورة الهجمات الاسلامية على الممالك اللاتينية ومحاولات عماد الدين زنكى توحيد الجبهة الاسلامية ، وفى الوقت نفسه يشعرون بخطورة محاولات الامبراطور البيزنطى حنا كومنين John Comnenus (١١١٨ — ١١٤٣ م / ٥١٢ — ٥٣٨ هـ) لاستعادة أنطاكية من الصليبيين . لذا استقر رأيهم على نبذ الخلف مع الإمبراطورية البيزنطية وارضاء الامبراطور البيزنطى — مؤقتا — والإتفاق على التعاون معا ضد المسلمين . فتوجه الأمير ريموند إلى معسكر الإمبراطور البيزنطى أمام أنطاكية ، وبذل له يمين الطاعة والولاء ، واتفقا على تنسيق التعاون ضد المسلمين ، فاكتفى الامبراطور حنا برفع العلم البيزنطى على قلعة أنطاكية^(٤) وتوجه إلى قيلقية فى سبتمبر ١١٣٧ م /

(١) Gregory the Priest, Continuation of Matthew of Edessa's Chronicle, in R.H.C. - Doc. Arm., Vol. I, p. 152.

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 201.

(٣) Gregory the Priest, op. cit., p. 152.

(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٥٨، ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٥١ — ٥٢؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٢ — وأيضا: =

ذى الحجة ٥٣١ هـ حيث قدم إليه بلدوين حاكم مرعش وكيسوم ، وبذل له
يمين الولاء والتبعية ، واتمس الحماية منه ضد هجمات المسلمين^(١)

بدأ الحلفاء الصليبيين والبيزنطيين في مهاجمة المدن الاسلامية في شمال
الشام ، وقد شارك حاكم مرعش وكيسوم القوات البيزنطية في الاستيلاء على
مدينة البلاط^(٢) في يوم الخميس الحادى من أبريل ١١٣٨م / الثامن عشر من
رجب ٥٣٢ هـ ، كما شارك بلدوين الحلفاء في الاستيلاء على مدينة بزاعة^(٣) ،
والأثارب^(٤) ، ومعرة النعمان^(٥) ، وكفر طاب^(٦) ، وأيضا في حصار مدينة
شيزر^(٧) ، وأمام مناعة شيزر من جهة وما قام به عماد الدين زنكى من

Micheal The Syri-an, op. cit., Vol. III, p. 245;

Gregory the Priest, op. cit., p. 153;

Cinnamus, J., Epitom Historiarum, in Corupus Scriptorum Historiae Byzantinae,
Bonn, 1836, pp. 18 - 19;

Nicetas Cohniates, Historia, in Corupus Scriptorum Historise Byzantinae, Bonn, 1835,
pp. 37 - 38;

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 93.

Micheal the Syri-an, op. cit. vol. III, p. 245; Gregory the Priest, op. cit. p. 153. (١)

(٢) البلاط : مدينة في شمال الشام تقع بين مدينتى مرعش وأنطاكية ، راجع البغدادي : المصدر السابق ،
ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٣) بزاعة : بلدة من أعمال حلب في وادى بطنان ، تقع بين منبج وحلب ، وفيها عيون جارية : راجع
ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ؛ البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ،
ص ١٩٢ .

(٤) الأثارب : قلعة في شمال الشام ، تقع بالقرب من مدينة حلب ، وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها .
راجع : البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٥) معرة النعمان : مدينة كبيرة تنسب إلى النعمان بن بشير الصحابي ، تقع بين حلب وحماة . راجع :
البغدادي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٨٨ .

(٦) كفر طاب : بلدة في شمال الشام ، تقع بين معرة النعمان وحلب . راجع : البغدادي : المصدر
السابق ، ج ٣ ، ص ١١٧٠ .

(٧) عن هذا الهجوم راجع : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ؛ أسامة بن منقذ :
المصدر السابق : ص ١٣١ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ؛
ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٨ - ٦٢٩ ؛ أيضا =

ترهيب الحلفاء ، والتفرقة والنفور بين البيزنطيين وبين الصليبيين (١) من جهة أخرى ، نتيجة لكل ذلك تقاعس جوسلين الثاني حاكم الرها ، ونائبه بلدوين حاكم مرعش عن مشاركة الإمبراطور البيزنطى فى الهجوم على شيزر (٢) ، مما كان له أثر كبير فى تفكك الحلف الصليبي البيزنطى من جهة ، وتقوية الجبهة الاسلامية من جهة أخرى ، وتوجيه المسلمين لمزيد من الضربات للصليبيين من جهة ثالثة .

بدأت الوحدة الاسلامية تؤتى أكلها ، ونجح عماد الدين زنكى من استرداد الرها فى جمادى الآخرة ٥٣٩ هـ / ديسمبر ١١٤٤ م ، وبذلك كانت الرها (٣) أولى الامارات الصليبية التى استعادها المسلمون ، وفى الوقت نفسه كانت أولى الامارات اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى .

أخذ جوسلين الثانى ونائبه بلدوين يتحينان الفرصة المناسبة لاستعادة الرها ، وقد جاءهما ما ينتظران بعد مقتل عماد الدين زنكى فى ربيع الآخر ٥٤١ هـ /

William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 93 - 94;

Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, p. 245;

Cinnamus, op. cit., pp. 18 - 20;

Nicetas : op. cit., pp. 37 - 40.

(١) : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 95.

(٣) . لمزيد من التفاصيل عن فتح الرها . راجع : ابن القلانسي / المصدر السابق ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٩٨ — ٩٩ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٣ ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ٩٣ — ٩٤ ؛ وأيضا :

William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 140 - 143;

Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, pp. 259 - 263;

Odo of Deuil, De Progection Ludovice VII Orientem, New York, 1948, pp. 7 - 9 ;

Roger of Wendover, The Flowers of History, 2 Vol., London 1888, Vol. 1, pp.

498 - 502.

سبتمبر ١١٤٦ م^(١) فشعرا بأن مسرح الأحداث قد خلا من تلك الشخصية الإسلامية التي جعلت الأخطار تحيط بهما من كل صوب ، ولم يكونا يعلمان أن عماد الدين قد خلف من بعده أبناء ، وعلى رأسهم نور الدين محمود ، لا يقلون كفاءة ومقدرة وحكمة عن أيهم .

توجه جوسلين الثاني ومعه نائبه بلدوين بقواتهما إلى الرها في أكتوبر ١١٤٦ م / جمادى الآخرة ٥٤١ هـ ، واتصلا بالأرمن داخل المدينة ، فسهلوا لهما دخولها على حين غفلة من حاميها السلجوقية القليلة ، والتي كان عماد الدين قد تركها لحمايتها ، فاعتصمت الحامية بقلعة الرها ، وعجز كل من جوسلين وبلدوين عن الاستيلاء على القلعة ، وما أن علم نور الدين محمود بأنباء دخول الصليبيين الرها ، حتى أسرع بقواته وحاصر الصليبيين بداخلها ، فشعر جوسلين ومعه نائبه بخرج الموقف ، وصمما على اختراق الحصار والفرار من المدينة ، ونجح جوسلين وبعض قواته في الفرار بعد ما أصيب في رقبته ، بينما قتل بلدوين حاكم مرعش^(٢) .

لم يجن جوسلين الثاني من محاولته لاستعادة الرها سوى مزيد من الضعف لإمارته المنهارة ، إذ فقد كثيرا من فرسانه ، وقتل حاكم مرعش لذلك قام بتعيين صهره رينولد Renaud خلفا لبلدوين في حكم المدينة ، وقد نجح رينولد في أن

(١) عن مقتل عماد الدين زنكي راجع : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١١ - ١١٢ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق : ص ٢٨٨ ، ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١١٤ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١١ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 157 - 161;

Micheal The Syrian, op. cit., Vol. III, pp. 270 - 272.

يفرض نفوذه على الأرمن^(١) في كركر^(٢) ، فجاء هذا التوسع بمثابة تهديد. لنفوذ سلاجقة الروم في المنطقة ، وجلب مزيداً من الأخطار لمدينة مرعش ، إذ ضاق السلطان مسعود بن قلعج أرسلان (٥١٠ - ٥٥٠ هـ / ١١١٦ - ١١٥٥ م) ، بتوسعات رينولد ، وقام في عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م بمهاجمة المناطق المحيطة بمرعش وأنزل بها الدمار^(٣) ، ثم زحف في جمادى الأولى ٥٤٤ هـ / سبتمبر ١١٤٨ م بقواته على المدينة واستولى عليها لفترة قصيرة ، وما لبث أن انسحب منها عندما علم بقدوم الملك الصليبي بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٤ - ١١٦٢ م / ٥٣٩ - ٥٥٧ هـ) بقواته لنجدتها^(٤) .

أخذت بقايا امارة الرها المنهارة ومن بينها مدينة مرعش تنتقل يوماً بعد يوم من سيء إلى أسوأ — وأخذت القوى الإسلامية من سلاجقة وأرانتقة بالإضافة إلى قوات نور الدين محمود ، أخذت توجه ضربات الواحدة تلو الأخرى لتلك الامارة المتداعية . فلم يكتف رينولد حاكم مرعش بتوسعاته التي جلبت على مدينته الخراب من قبل سلاجقة الروم ، إنما خرج بقواته لمساندة الأمير ريموند حاكم أنطاكية في مواجهة قوات نور الدين محمود التي بدأت في حصار قلعة أنب^(٥) ، وجرت المعركة بينهما في صباح يوم ٢٩ يونيو ١١٤٩ م / ٢١ صفر ٥٤٤ هـ ، وانتهت بانتصار حاسم للمسلمين ، وقتل الكثير من فرسان

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 53;

Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, pp. 209 - 210;

Gregory the Priest, op. cit., p. 162.

(٢) كركر : حصن يقع في قليقية بالقرب من مدينتي ملطية وأمد . راجع : البغدادي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٥٨ .

(٣) Micheal the Syrian, op. cit., Vol. III, p. 210.

(٤) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 200.

(٥) أنب : حصن في شمال الشام من أعمال عزاز ، ويقع بالقرب من حلب . ارجع : البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

الصليبيين كان من بينهم الأمير ريموند ، ومعه رينولد حاكم مرعش
وكرر (١) .

أما الأراتقة فكان لهم هم الآخرين نصيبا من تلك الفريسة الممزقة ، إذ قام
قره أرسلان الأرتقى — صاحب حصني كيفا وخرتيرت — بالاستيلاء على
منطقة كركر عام ١١٤٩م / ٥٤٤هـ ، فكان ذلك مدعاة لسرور المسيحيين
اليعاقبة في المنطقة الذين فضلوا حكم قره أرسلان عن حكم رينولد بما اتسم به
من محاباه للارمن واضطهاد لليعاقبة (٢) .

انتهت مرحلة الانهيار لامارة الرها اللاتينية بوقوع جوسلين الثاني أسيراً في
قبضة نور الدين محمود عام ١١٥٠م / ٥٤٥هـ (٣) ، واقتسام نور الدين ووالد
زوجته السلطان مسعود بن قلعج أرسلان بقايا تلك الامارة ، إذ أصبحت
مرعش تابعة لسلاجقة الروم (٤) .

ظلت مدينة مرعش سلاجقة الروم في قونيه . وفي عهد قلعج أرسلان ابن
مسعود (٥٥١ — ٥٨٤هـ / ١١٥٦ — ١١٨٨م) تعرضت مراعي الابل
والماشية القريبة من المدينة عام ١١٦٠م / ٥٥٥هـ لهجوم من قبل رينو دى

(١) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ،
ص ١٤٤ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩ ، أبو شامة : الروضتين في
أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزعان ، القاهرة ١٢٨٧ — ١٢٨٨ هـ ، ج ١ ، ص ٥٨ ؛
ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٠ — ١٢١ ؛ وأيضا :

William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 196 - 198.

Gregory the Priest, op. cit., p. 162;

(٢)

Michael the Syrian, op. cit., Vol. III, pp. 210 - 211.

(٣) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٣١٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٥٤ —
١٥٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ ؛ وأيضا :

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 201.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٩١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ،
ص ٣٣٨ ، ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

شايتون Renaud de Chatillon حاكم أنطاكية آنذاك (١١٥٣ - ١١٦٠ م / ٥٤٨ - ٥٥٥ هـ) والمعروف في المصادر العربية باسم أرناط ، إذ أستولى على الكثير من تلك القطعان وعاد إلى أنطاكية متجنباً مواجهة قوات نور الدين محمود (١) .

وعندما ساءت العلاقات بين نور الدين وبين قلعج أرسلان بن مسعود بسبب تقاعس الأخير عن مشاركة نور الدين في الجهاد ضد الصليبيين والبيزنطيين ، وبسبب اعتدائه على أملاك أمير الدانشمند ذى النون في ملطية ، واستتجاد الأخير بنور الدين محمود ، عندئذ ، أرسل نور الدين إلى قلعج أرسلان يطالبه برد ما أخذه من أملاك الدانشمند ، ولما رفض الأخير ذلك ، زحف نور الدين بقواته في عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م ، فملك مرعش في ذى القعدة / أغسطس من العام نفسه ، وأعاد كيسوم إلى آل الدانشمند (٢) .

بامتلاك نور الدين لمرعش ، تنضم المدينة إلى الجبهة الإسلامية التي وحدها نور الدين ، وأكدها من بعده صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية وكانت تلك الجبهة الموحدة هي الركيزة التي انطلقت منها الجيوش الإسلامية لتحقيق النصر على الصليبيين في موقعة حطين عام ١١٧٧ م / ٥٨٣ هـ ، والتي أثمرت بعودة معظم المدن والقلاع الإسلامية إلى أصحابها .

أما عن دور المدينة في القرن الثالث عشر الميلادي / القرن السابع الهجري فهو محدود ، إذ عادت المدينة إلى حكم سلاجقة الروم ، واتخذها السلطان عزالدين كيكاوس (٦٠٦ - ٦١٦ هـ / ١٢١٠ - ١٢١٩ م) كقاعدة لشن الهجمات على الملك الأرمني ليو الثاني (٢) Leo II (١١٨٧ - ١٢١٩ م / ٥٨٣ - ٦١٦ هـ) وظلت المدينة هدفاً للهجمات بين السلاجقة والأرمن إلى

(١) William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 283 - 284;

Gregory the Priest, op. cit., p. 198.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٩١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ،

ص ٢٣٨ ، ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

أن استعادها السلطان المملوكى الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٢ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) فى آخريات عهده عام ١٢٩٣ م / ٦٩٢ هـ.^(١)

ويتضح من العرض السابق أن موقع مدينة مرعش من منطقة الثغور جعلها هدفا للاغارات البيزنطية منذ القرن السابع الميلادى / القرن الأول الهجرى حتى القرن العاشر الميلادى / القرن الرابع الهجرى ، وأن المدينة كانت محط عناية السلطات الاسلامية سواء أكانت أموية أم عباسية ، وعندما سيطر عليها البيزنطيون فى القرن العاشر الميلادى / القرن الرابع الهجرى أصبحت المدينة مركزا لدولة أرمنية ناشئة ، سرعان ماتعرضت للتفكك والانقسام ، وتوارثها بعض قادة الأرمن ، الذين مهدوا الطريق للصليبيين على مشارف الشام .

وبعدها سيطر الصليبيون على مرعش ، بدأ دور المدينة يتضح فى الصراع الإسلامى الصليبي ، إذ أمدت القادة الصليبيين بالرجال ، وشارك حكامها فى العديد من المعارك التى دارت رحاها فى الشام . كما بسط حكامها نفوذهم على المناطق الأرمنية فى كيسوم وكركر ، وشاركوا فى الهجوم البيزنطى الصليبي على المدن الاسلامية ، واستمر هذا الدور قويا فعلا إلى أن بدأت اليقظة العربية الاسلامية ، وجاء توحيد الجبهة الاسلامية على يد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود اللذين وجها العديد من الضربات للمدينة ، فبدأت فى طريقها السريع نحو الضعف والانهيار إلى أن استردها نور الدين فى عام ١١٧٢ م / ٥٦٨ هـ .

والله ولى التوفيق ،،،

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤ ج ، بيروت ١٩٧٤ م ، ج ١٣ ، ص ٣٢٢ .

الفصل الخامس

الحيل والخدع العسكرية الاسلامية منذ بداية الغزو
الصليبي حتى وفاة نور الدين محمود
(١٠٩٨ - ١١٧٤م / ٤٩٤ - ٥٦٩ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

عرفت البشرية الحروب منذ أقدم العصور ، وتعددت أسلحتها وأساليبها واختلفت من عصر إلى آخر باختلاف الزمان والمكان والظروف . وشهدت الفترة التي قام فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين اساليب متعددة من الخيل والخدع العسكرية التي مارسها الجانبان على حد سواء . وقد اظهر المسلمون تفوقا واضحا على الصليبيين في اساليب الحرب والقتال ، الأمر الذي أكدته كثير من الكتاب الغربيين الذين عاصروا هذا الصراع . وعنوان بحثنا هو « الخيل والخدع العسكرية الاسلامية منذ بداية الغزو الصليبي حتى وفاة نور الدين محمود (١٠٩٨ - ١١٧٤م/٤٩٤هـ - ٥٦٩هـ) » .

تحدثنا في البداية عن المقصود بالخيال والخدع العسكرية ، ثم بينا الفرق بينهما وأعقبنا ذلك بالإشارة الى أوجه استخدامات الخيل العسكرية ووسائلها مستشهدين ببعض الأمثلة عن استخدامات المسلمين لها في صراعهم مع الصليبيين أما عن الخدع العسكرية فقد تحدثنا عن أساليبها المختلفة ومنها خدعة الكمين ، وحددنا الشروط التي يجب مراعاتها لانجاح تلك الخدعة ، وبيننا مدى نجاح المسلمين في استخدامها ثم أشرنا إلى خدعة الارتداد الظاهري وأوردنا بعض الأمثلة التي توضح استخدام القوات الاسلامية لها طمهد الصليبيين ، وأعقبنا ذلك بالحديث عن خدعة الهجوم التمويهى وبيننا أثر استخدام المسلمين لتلك الخدعة على مجريات الاحداث فوق رقعة الشرق الأدنى الاسلامى . واختتمنا البحث بالإشارة الى كيفية استخدام المسلمين للظواهر الطبيعية في اعمال الخدع العسكرية . وفى الختام ، ادعو المولى القدير أن أكون قد وفقت بها فيه صالح أمتنا الاسلامية ، والله ولى التوفيق .

د . ابراهيم خميس ابراهيم

لا ريب أن الحيل والخدع العسكرية تعد من تدابير الحرب في أى زمان ومكان وتؤثر على مجرياتها . وقبل أن نبين أهميتها في الصراع الإسلامى الصليبي لابد من أن نقوم بتعريف كل من الحيل والخدع العسكرية الإسلامية ، ونوضح الفرق بينهما .

لم تشر قواميس اللغة العربية الى تعريف كل من الحيل والخدع العسكرية ، بينما يوضح الأنصارى أن الحيلة هي التي تمكن القائد العسكري من « الحصول على الظفر ، مع سلامة النفس وحفظ الجند والراحة من التعب »^(١) . وعلى هذا فان الحيلة العسكرية هي التي تحقق النصر على الأعداء دون الاشتباك معهم في معارك وذلك أن القائد العسكري في أية معركة لا ينجح النصر دون خسائر ، ودون أن يتعرض جنده للاخطار في القتل والجراح^(٢) ، وبالحيلة أو المكيدة يجنب جنده تلك المخاطر ، أو بأقل قدر من الخسائر البشرية والمادية .

أما عن الغرض من إستخدام الحيل العسكرية فيتمثل في تفريق شمل الخصوم ، وإيقاع الخلف بينهم ووثوب بعضهم ببعض^(٣) ، وإبعاد خطرهم^(٤) ، وإمتلاك قلاعهم ومدنهم^(٥) .

وبالنسبة لتعريف الخدعة العسكرية يتضح من المصادر العربية وغير العربية^(٦) أنها تمثل الوسيلة التي عن طريقها يغري القائد العسكري قوات أعدائه الى التوجه الى أماكن يتم فيها هزيمتهم . وبذلك تتفق الحيلة العسكرية مع الخدعة في الغاية وهي تحقيق النصر وبمختلفان في الوسيلة ، فالأولى تجنب الاخطار ، والثانية تؤدي الى الظفر مع وقوع بعض الخسائر .

-
- (١) الأنصارى : تفریح الكرب في تدبير الحروب ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٢٧ .
 - (٢) المرثى : مختصر سياسة الحروب ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢١ .
 - (٣) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٢٨ .
 - (٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ١٣ج ، بيروت ١٩٧٩م ، ج ١١ ، ص ٥٨ .
 - (٥) ابن واصل : مفرج الكرب في أخبار بنى أرب ٣ج ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ١٢٦ .
 - (٦) عن تلك المصادر انظر الصفحات التالية .

والتساؤلات التي تطرح نفسها هنا هي : متى يلجأ القائد الى الحيلة ؟ ، والى وسائلها ؟ ، والى أى مدى طبقها القادة المسلمون اثناء صراعهم مع الصليبيين ؟ . وبالنسبة للاجابة عن التساؤل الأول نوضح : أن من بين الصفات التي يجب أن تتوفر في القادة العسكريين ، حسن البصيرة في اختيار المواضيع المناسبة لاستخدام الحيل والمكايدة ، وبلوغ القصد بأدنى الحيل ، وان لايعمل على النزال اذا وجد للحيلة سبيلا^(١) ، ويلجأ القائد إلى إستخدام الحيل العسكرية في الاحوال الاتية :

أولاً : اذا كان جيشه أقل عددا وعدة من جيش اعدائه . ففي هذه الحالة يجب على القائد أن يلجأ الى الحيلة ولا يتعجل في لقاء اعدائه ، ولايتعرض لهم إن أعرضوا عن القتال ، حتى لا يكون كمن « أثار الحية من جحرها^(٢) » فعرض نفسه للضرر .

ثانيا : الظفر بأسر أحد قادة الاعداء ، ويتمثل هذا الجانب في استخدام نور الدين محمود الحيلة في القبض على جو سلين الثاني Joscelin 11 حاكم الرها الصليبي سابقا ، وتل باشرانداك (١١٣١ — ٥٢٦/١١٥٩ — ٥٥٤هـ) بعد ما رأى أن استخدام القوة العسكرية لا تجدى نفعا معه^(٣) .

ثالثا : فتح المدن التي يصعب أخذها بالقهر . ويتضح ذلك في أخذ نور الدين محمود مدينة دمشق بالحيلة عام ٥٥٤٩/١١٥٤م بعد أن فشلت المحاولات العسكرية في فتحها^(٤) .

(١) المرتضى : المصدر السابق ، ص ١٥ ، ١٧ ، ١٩ — ٢٠ .

(٢) الأنصاري : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٥٤ ، وايضا :

Willam of Tyre Ahistory of Deeds done Beyond the sea, 2 Vol., New York, 1943 Vol, 11, P.

201

(٤) ابن العديم : زبدة الخلب في تاريخ حلب ، ج ٣ ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ .

وبالنسبة الى الرسائل التي تؤدي الى نجاح الحيلة فتتمثل في تزييف القائد في استمالة قلوب بعض الاعداء بأن يعدهم بكل جميل ، ويتحفهم بالهدايا ويطمع آمالهم في بلوغ كل مقصود ، وان يعفو عنهم ويصفح عن جرائمهم ان مالرا اليه ويبدل الامان لكل من سأله منهم ، ويدعوهم الى الوثوب على رؤسائهم إن أمكنهم ، أو يعتزلوهم ويخرجوا عليهم ، وايضا في أن يكتب الى قادة خصومه كتباً كأنها جواب عن كتب وصلت اليه من بعض أعوانهم ، ويلقيها في المواقع التي يتوقع أن يعثروا عليها فيؤدي ذلك الى افتراق كلمتهم ، وتشتيت جماعتهم ، وتغيير خواطر بعضهم من بعض مما يجعلهم يقتل بعضهم بعضاً^(١)

أما عن اجابة التساؤل الاخير ، فيجب الاشارة أولا الى أن الحيلة والخدعة في الحرب امران لاغبار عليهما ، وذلك بما ورد في الصحيحين عن ابى هريرة وجابر ابن عبد الله الأنصاري — رضى الله عنهما — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحرب خدعة » .

استخدم القادة المسلمون الحيل العسكرية المختلفة في حروبهم مع الصليبيين ففي عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ حاول الامير النورمانى بوهمند الأول Bohemond 1 حاكم أنطاكية (١٠٩٨ — ١١٠٤م/٤٩١ — ٤٩٧هـ) الاستيلاء على مدينة جبلة^(٢) ، فأرسل إليها حملة تعرض فيها معظم افرادها للقتل أو الأسر ، بسبب أعمال الحيلة . ذلك عندما رأى حاكم المدينة أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بأبن صليحة اصرار الصليبيين على الاستيلاء على مدينته ، جعل بعض المسيحيين الوطنيين في جبلة يرسلون الصليبيين ، ويهونوا عليهم سهولة الاستيلاء عليها عن طريق مساعدتهم في النفاذ الى داخلها عبر أحد أبراجها ليلا . لذا أرسل بوهمند تلك الحملة ، فتوجهت الى البرج المذكور في الرسالة ، وتسلفه رجالها بالحبال في ظلمة الليل بينما كان في انتظارهم ابو صليحة ورجاله ، كلما صعد منهم نفر قبض

(١) الأنصاري : المصدر السابق ، ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢) جبلة : مدينة بالشام ، تطل على الساحل ، وهي من اعمال اللاذقية ، وتقع بالقرب من مدينة حلب . راجع : البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٢

عليهم وقتلهم وفي الصباح رمى رؤوس القتلى فرحل من تبقى منهم^(١) . وهكذا مارس بعض القادة المسلمين أعمال الخيلة مع الصليبيين بعد مجيئهم الى الشرق الأدنى الاسلامى بزمن قصير ، وأنزلوا الخسائر بهم ، وأثبتوا لهم أنهم أمام عقلية عسكرية فذة .

استمر المسلمون في استخدام أعمال الخيلة في حروبهم مع الصليبيين ابان الفترة الزمنية موضوع البحث . ففى عام ٤٩٧هـ / ١١٠٤م قام معين الدولة سكرمان الأرتقى حاكم مارين وديار بكر — بعد أن انتصر على الصليبيين في العام نفسه^(٢) ، قام باستخدام الخيلة ، اذ جرد أسرى الفرنج الذين وقعوا في قبضته من ملابسهم ، وألبسها عسكريه ، وأركبهم خيل الفرنج ، وقلدهم أسلحتهم ، وتوجه الى الحصون الصليبية المجاورة لمنطقة شيجان^(٣) ، وخرج اليه المدافعون عنها من الصليبيين ظنا منهم أن أصحابهم قد انتصروا ، فقبض عليهم ، وقتلهم ، وأخذ الحصون منهم^(٤) .

كما استخدم المسلمون الخيلة لاحداث الفرقة والتنافر بين الصليبيين والبيزنطيين فعندما بدأت اليقظة العربية الاسلامية التي كان من بين روادها الأوائل مودود واقسنقر البرسقى ، تقوى وتشدت على يد عماد الدين زنكى حاكم الموصل وحلب ، رأى الصليبيون ضرورة تصفية الخلاف مع البيزنطيين ، والتحالف معهم ضد المسلمين . وعندما بدأت القوتان المتحالفتان في مهاجمة بعض المدن الاسلامية في شمال الشام^(٥) عام ١١٣٨م/٥٣٢هـ لجأ عماد الدين الى الخيلة ،

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٣١٠ — ٣١١ ، وايضا :

Albert d'Aix, historia hierosolymi tona, in R.H.C.- H Occ. vol. PP, 582-583.

(٢) عن أحداث تلك المعركة ، وما قام به المسلمون من خدع عسكرية ، انظر الصفحات التالية .

(٣) شيجان : منطقة تشرف على الجبال التي تحيط بمدينة بيت المقدس . راجع : البغدادي : مرصد

الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، ج٣ ، القاهرة ١٩٥٤م ج٢ ، ص ٨٢٤ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٣٧٥ .

(٥) عن هذا التحالف ، والهجوم على المدن الاسلامية راجع : ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق بيروت

١٩٠٨م ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، برنستون ،

الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٣٠ ، ص١١٣ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج١١ ، ص

٥٦ — ٥٧ ، وايضا :

فكان يرسل الى الامبراطور البيزنطى حناكومنين John comnenus (١١١٨٠ - ١١٤٣م/٥١٢ - ٥٣٨هـ) يومه بأن الصليبيين خائفون منه ، وأنه لو فارق مكانه لتخلوا عنه ، ويرسل الى الصليبيين يخوفهم من الامبراطور البيزنطى ، ويقول لهم انه لو ملك حصنا واحد ملك بلادكم جميعا^(١) ، وقد نفعت الحيلة وآتت أكلها ، اذ بدأ كل من المتحالفين يظن سوءا فى نوايا الآخر ، مما أدى الى فشل التحالف ، ورحيل الامبراطور البيزنطى عائدا الى القسطنطينية^(٢) .

أما عن نور الدين محمود فكان يكثر من أعمال الحيلة فى صراعه مع الصليبيين ، فعندما رأى أنه كلما سير بعض قواته لفتح ماتبقى من امارة الرها ، استعان حاكمها السابق جوسلين الثانى بنى جلدة من الصليبيين ، واحتمى بقلاعه الحصينة ، وأنه أساء لنور الدين عند والد زوجته^(٣) الكل ذلك مال نور الدين الى أعمال الحيلة فاستحضر جماعة من امراء التركان ، ورغبتهم كى يقوموا برصد تحركات الامير الصليبي^(٤) ، والقبض عليه^(٥) ، واحضار قتيلا أو أسيرا ،

— William of Tyre. op. cit., vol. 11, pp. 93-94 Micheal leSyrian, chzonique de Michael le Syrian,

Patriarche Jacobite d'Antioche (1166-1199), 3 vols.

Paris, 1905, vol, 111, p.245; Cinnamus, J. Eptiome historiarum, in Corpus scriptorum historiae Byzantinae. Bonn, 1836, PP. 18-20; Nicetas choniates,

historiarum in corpus scriptorum historiae Byzantinae, Bonn, 1835, PP. 37-40

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ٥٨ .

William of Tyre, op., cit. vol, 11. PP 96-99; cinnamus, op. cit., PP, 23 - 24

(٢) كان جوسلين الثانى قد نجح بفضل مؤازرة اخوانه الصليبيين فى تحقيق النصر على نور الدين محمود

عام ١١٥٠م/٥٤٦هـ ، ووقع فى يد جوسلين أمير سلاح دار نور الدين أسيرا ، كما استولى على سلاح نور الدين ، فسير جوسلين كل هذا الى الملك مسعود بن قلعج أرسلان صاحب قوته وقال له : هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو اعظم . ابن الاثير : المصدر السابق ، ج١١ ، ص

١٥٤

William of Tyre, op, cit., vol., 11 p. 201. (٣)

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .

(٥) ابن الاثير : نفس الموضع .

فكمن له التركان حتى خرج ذات يوم متصيد^(١) ، فلحقت به طائفة منهم ، وظفروا به أسيرا^(٢) وتمكن ابن الداية — نائب نور الدين في حلب — من إحضاره الى سبيده^(٣) ، فظل سجينا في حلب تسع سنوات ، حتى مات في عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ^(٤)

ولما كانت مدينة دمشق تمثل الصخرة التي تحطمت عليها محاولات نور الدين لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية المتحددة ، بسبب ميل حاكمها مجير الدين أبق الى الصليبيين ، وتحالفه معهم^(٥) ، واستنجاهه بهم^(٦) كلما تقدمت اليها القوات الاسلامية لضمها الى الجبهة الاسلامية ، لذلك لجأ نور الدين الى أعمال الحيلة فراسل مجير الدين واستماله وأتحفه بالهدايا ، وأظهر له المودة حتى وثق به ، ثم صار يكاثبه في بعض الأوقات ويقول له : « ان فلانا — ويذكر بعض الأمراء الذين في خدمة مجير الدين — قد كاتبنى في تسليم دمشق »^(٧) وبذلك الحيلة نجح نور الدين في بذر بذور الفرقة بين مجير الدين وبين أمرائه ، إذ انقلب عليهم ، فتارة يجرد أحدهم من اقطاعه ، وتارة يقضى على البعض الآخر ، وظل الأمر على هذا الحال الى أن خلت دمشق من معظم الأمراء ، وعندئذ قدم على مجير الدين أحد الامراء ويسمى عطاء بن حافظ السلمي ، كان نور الدين يعلم مدى قوته ، وأنه لن يتمكن من دخول دمشق في وجود هذا الرجل ، فذكره من بين الأمراء الذين كاتبوه ، فقبض عليه مجير الدين ، وأراد قتله ، فقال له عطاء بن حافظ : أن الحيلة

-
- (١) Gregory the Priest, continuation of Matthew of Edessais chronicle, in R.H.C Doc. Arm., Vol. 1; PP. 161 - 162
- (٢) ابن القلاسي : المصدر السابق ، ص ٣١٠ .
- (٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
- (٤) Michael the Syrian, op. cit, vol. 111, p. 295.
- (٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٢٦
- (٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ١٩٧ ، وايضا : William of Tyre, op, cit, vol.11,p.149
- (٧) ابن العديم : المصدر السابق ج٢ ، ص ٣٢٤ .

قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول فلم يصغ الى قوله وقتله^(١) .
وبهذا تكون الخطوة الأولى من حيلة نور الدين قد نجحت ، وجعلت مجير الدين
يتخلص من غالبية أمراءه داخل المدينة . أما الخطوة الثانية فقد جاءت عندما
استغل نور الدين سخط العامة ورجال الحامية وتذمرهم ضد مجير الدين بسبب
ميله للصليبيين ، وبسبب الضائقة الاقتصادية التي كانت تعاني منها المدينة
وقتذاك^(٢) . فراسلهم نور الدين واستأهم ، فمالوا اليه ، ووعدوه بالمساعدة وتسليم
المدينة اليه^(٣) ، لما اشتهر به من العدل والديانة والاحسان^(٤) ، وبذلك ضمن نور
الدين المساعدة من جانب سكان المدينة في حالة اقتحامها . وأخيرا جاءت
الخطوة الثالثة والأخيرة من مراحل الحيلة عندما أرسل نور الدين قائدة أسد الدين
شيركوه من قبله الى مجير الدين ، ولكن الأخير رأى الجيش في صحبة المبعوث ،
فلم يسمح له بدخول المدينة ، ولم يستقبله^(٥) ، فاعتبر نور الدين في ذلك اهانة
لمبعوثه ، وبدأ في الاستعداد لاقتحام المدينة . وفي صفر ٥٤٩هـ / أبريل ١١٥٤م
هاجمت قوات نور الدين أسوار دمشق^(٦) ، وفي الوقت نفسه ثار العامة الذين
راسلهم نور الدين في داخل المدينة^(٧) . ويوضح كل من ابن القلانسي وأبو شامة
أن مجير الدين لم يكن مكروها من أهالي دمشق من المسلمين فحسب ، انما أيضا
من غير المسلمين ، اذ يشير ان الى أن امرأة يهودية قد ألقت بالحبل من فوق سور
المدينة فتسلق عليه بعض جنود نور الدين ، واعتلوا السور ، بينما أسرع نفر آخر
من أهالي المدينة بتحطيم أغلاق ابواب السور وفتحها لدخول بقية العسكر^(٨) .
أما مجير الدين فعندما شعر بأن زمام الأمور قد بدأ يقلت من بين يديه ، استنجد

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج٢ في مجلد واحد ، القاهرة

١٢٨٧هـ ، ج١ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن القلانسي المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ١٩٨ .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٥٥ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ١٩٨ .

(٨) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، أبو شامة : المصدر السابق ، ج١ ص ٩٦ .

بالصليبيين وبذل لهم الأموال ، ووعدهم بتسليم قلعة بعلبك^(١) اليهم اذا هم ساعدوه لجعل نور الدين يرحل عنه ، فزحفوا لنجدته ، ولكنهم وصلوا بعد أن تسلم نور الدين دمشق ، فعادوا بخفي حنين^(٢) .

لم تقتصر أعمال الحيلة لنور الدين عند هذا الحد ، انما كان أيضا يجادع مليح ابن ليون الأرميني أمير قليقية (١١٧٠ — ١١٧٥م/٥٦٥ — ٥٧٠هـ) ويستميله حتى جعله في خدمته ، وكان يقاتل به الصليبيين ، وذلك لان بلاده كانت حصينة ، ووعرة المسالك ، وقلاعه منيعة ، وليس للمسلمين اليها طريق^(٣) ، فأقطعهم نور الدين اقطاعات في المناطق الاسلامية ولما قيل له في معنى استخدامه واعطائه الاقطاع من بلاد الاسلام قال : أعتد عليه في قتال الصليبيين ، وأريح بذلك عسكري^(٤) . ولا ريب أن نور الدين كان صائبا في هذا الاتجاه لأن الذي أهدى به ابن ليون مهما بلغت قيمته لا يعادل تكلفة خروج القوات الي تلك المناطق وتحملها المشاق والعناء ، وما يلحق بها من اضرار .

كما استخدم نور الدين الحيلة العسكرية لاجبار الصليبيين لفك الحصار ومحاربة قواته ، فعندما ضعفت الدولة الفاطمية ، وتطلع كل المسلمين وعلى رأسهم نور الدين محمود ، والصليبيين وعلى رأسهم عموري الاول Amury I ملك بين المقدس الصليبي (١١٦٣ — ١١٧٤م .٪ ٥٥٨ — ٥٦٩هـ) الى مصر للسيطرة عليها ،

(١) بعلبك : مدينة بالشام ، تقع بالقرب من مدينة دمشق ، على بعد مسيرة ثلاثة أيام منها وكانت مدينة حصينة على سفح جبل لبنان ، ويحيط بها سور عرضه عشرين شبرا ، وأرضها خصبة ، ويشق الماء وسطها . راجع : البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ، البكري : معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، ج ٢ ، بيروت (بدون تاريخ) ج ١ ، ص ٢٦٠ ، الحميري : الروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، وايضا :
William of Tyre, op. cit., vol. 11, P. 204

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨ .
(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٨٧ ، وايضا :
William of Tyre, op. cit., vol. 11, pp. 332 340.

بأساليب مختلفة ، وطرق متعددة ، وجنوا من وراء ذلك ثمارا عديدة وتحصير تلك الأساليب فيما يلي :

أولا : الكمائن : استخدم المسلمون الكمائن للتربص بالقوات الصليبية والانقضاض عليها ، وانزال الهزائم بها ، وكان فن إستخدام الكمائن له أسس يجب مراعاتها عند اختيار جند الكمائن وخبوهم وأسلمتهم ، ومكان الكمين ، وما يجب عليهم عند بدء الكمين ، وتمثلت تلك الأسس في عدة نقاط :

(١) اختيار الجند :

يجب أن يختاروا من بين العارفين بأحوال الخيول وآلاتها ، ولديهم بعض المعرفة بشئون البيطرة ، كى يكونوا قادرين على اصلاح الآلات والأسلحة ، وعلاج الخيل حين تدعوا الضرورة الى ذلك ، وأن يكونوا ممن لهم دراية جيدة بركوب الخيل وحركاتها في الحرب ، وممن لديهم صبر وجلد في السعى على الأقدام ، ومن العارفين بمواقع الدروب ومسالكها والمدافعة ومحاوره الفرسان^(١) ، وألا يكون بأحد منهم علة^(٢) ، وأن يكونوا أشجع فرسان العسكر ، وأكثرهم دراية بشئون الحرب ، وأعرفهم بالتجارب ، ذلك لأنهم ينفردون عن العسكر ويكونون في مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولا ينجدهم ، ويجب أن يكون عليهم مقدم عارف بأمور الحروب ، عالم بأحوال الأماكن الصالحة للاختفاء^(٣) .

(٢) الخيول :

يجب ألا يكون بها علة^(٤) ، وتتقى من بين السوابق الجيدة ، سالمة الخوافر ، وتختار جميعها إما من الذكور أو من الاناث ، لأنه لو اجتمع الذكور مع الاناث

(١) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٤٢

(٢) المرثى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٣) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٤) المرثى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

وتوالى الحملات الاسلامية والصليبية على مصر^(١) ، وجرت بينهما كثير من المعارك ، ومنها ما حدث عندما أرسل نور الدين عام ١١٦٩م / ٥٥٩هـ حملته الأولى على مصر بقيادة قائده أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين لمساندة الوزير الفاطمي شاور . ولكن الأخير تراجع عن عهده ، وتنكر لأسد الدين شيركوه ، فما كان من قائد نور الدين الا أن توجه الى مدينة بلبس واعتصم بداخلها ، عندئذ استنجد شاور بالملك الصليبي عمورى ، الذى لى النداء ، وقدم على وجه السرعة ، وشارك بقواته مع جيش شاور فى حصار مدينة بلبس وبداخلها قوات نور الدين . وعندئذ لجأ الأخير الى أعمال الخيلة ، فهاجم قلاع الصليبيين فى بانياس وطبرية ، وجمع أعلام الصليبيين وراياتهم وأرسلها مع أحد رجاله الى أسد الدين شيركوه لادخالها اليه خفية ، وطلب منه أن يرفعها على أسوار مدينة بلبس ، فلما رأى الصليبيون تلك الأعلام والرايات خافوا على أملاكهم ، وانزعجوا ، وعجلوا بالرحيل الى الشام^(٢) .

وهكذا يتضح من العرض السابق أن المسلمين قد قاموا بأعمال الخيل العسكرية ضد الصليبيين بعد وصولهم الى الشرق الأدنى الاسلامى بسنوات قلائل ، وظلوا على استخدامها أثناء الصراع الصليبي الاسلامى ، وحققوا من وراء ذلك مكاسب عديدة سواء أكانت استعادة بعض المدن الاسلامية ، أو ضمها للجهة الاسلامية المتحدة بعد حركة اليقظة فى بواكير القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثانى عشر الميلادى) أم بالقبض على بعض القادة الصليبيين ، أم باجبار الفرينج على فك الحصار عن المدن الاسلامية .

أما عن الخدع العسكرية فقد استخدمها المسلمون أثناء صراعهم مع الصليبيين

(١) عن تلك الحملات راجع : ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠ ، ٣٢٤ — ٣٢٧ ، ٣٣٥ — ٣٤٣ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit., VOL. III, PP. 332 - 340

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit., vol. II, PP. 295 - 300

Michael the syrian , op. cit. VOL. III, PP. 332 - 333

ربما أوجب ذلك اثاره جلبة من سهيل الخيل أوصياحها ، فيؤدى إلى العلم بالكمين^(١) ، كما يجب ألا يكون فيها حرن أو جماح^(٢) .

(٣) الأسلحة :

يجب أن تحفظ غالبية الأسلحة في جعاب أو حقائب جلدية حتى لا تحدث خشخشة أو أصوات يستدل منها الأعداء على مكان الكمين^(٣)

(٤) مكان الكمين :

يجب أن يكون موضع الكمين خفيا مستترا ، وأن يكون مما يحتمل الإقامة فيه اذا دعت الحاجة الى طول الإقامة ، بأن يكون فيه الماء والمرعى وسائر ما يحتاج اليه الكميناء قدر الامكان^(٤)

(٥) ما يجب على المكمين عند بدء الكمين :

أول ما يجب عليهم أن يختاروا من بينهم رجلا ممن يوثق به ويتحقق بنصيحته ، حتى اذا كان خلاف ذلك ، ربما يميل الى الأعداء ، ويدلهم على الكمين ، وتكون مهمته رصد تحركات الأعداء والأبلاغ ، وعلى المكمين أن يتجنبوا التعرض للصيد من الطير أو الحيوان ، حتى لا ينتج عنه نفاير الطير أو الحيوان فيستدل على ذلك أهل البصيرة من الأعداء ويعلموا بالكمين ، ويتعين بأن يكون وقت ظهور الكمين في حال غفلة الأعداء ، وذلك عند حطهم عن دوابهم واراحتها ، ويختاروا الأوقات المناسبة كأحر ساعة في الصيف ، وأبردها في الشتاء ، وإذا لم يظفروا بمباغته الأعداء ، فعليهم الاسراع بالعودة الى مكمنهم^(٥) .

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٣٠ .

(٢) المرثى : المصدر السابق ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٣) المرثى : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٤) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٥) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٧٢ ، المرثى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

استخدم المسلمون أسلوب الكمائن في الحيل العسكرية منذ قدوم الصليبيين الى الشرق الأدنى الاسلامى. ففي أثناء الحصار الصليبي لمدينة أنطاكية عام ١٠٩٧/٥٩٠هـ ، تسللت جماعات من الحامية الاسلامية الى خارج المدينة ، ونصبت الكمائن للصليبيين الذين ابتعدوا عن معسكرهم أمام أنطاكية ، ونجحت احدى الجماعات في أن تنصب كمينا للفرقة الصليبية التي كان يقودها كل من الأميرين الصليبيين بوهند النورماندى وريموند الصنجيلى ، وأنزلت بقواتها الهزيمة ، ففر الأميران مذعورين ، وعادا الى المعسكر الصليبي^(١) .

وإذا كان أسلوب الكمائن له نمط واحد ، فان المسلمين قد طبقوه أثناء صراعهم بأساليب مختلفة . فعندما علم المسلمون مدى معاناه الصليبيين لنقص المؤن لديهم أثناء حصارهم لحصن الأكراد^(٢) في عام ١٠٩٩م / ٤٩١هـ . فتح المدافعون عن الحصن أحد الأبواب ودفعوا ببعض المشاة ، فانشغل الصليبيون بمطاردتها ، والامساك بها ، بينما انقض كمين من المسلمين خارج الحصن على الصليبيين بقيادة أميرهم ريموند الصنجيلى ، فأنزلوا بهم الهزيمة ، وكادوا يظفرون بأسره ، بعد مقتل معظم قواته^(٣) ، وبذلك يتضح أن الأمير الصليبي ريموند قد واجه الهزيمة على يد المسلمين في حادثتين ، استخدم فيهما المسلمون خدعة الكمين ولكن بأسلوب مختلف وفي ظروف مختلفة .

استمر المسلمون في استخدام خدعة الكمائن في ظروف مختلفة استغلوها لانزال الخسائر بالصليبيين . فعندما شرع الصليبيون في حصار مدينة بيت

(١) Raimondi d'Aguilers, Historia Francorum qui aperunt Jerusalem, in R.H. C.-H. Occ. Vol.111, Paris'1866. P. 248

08/Albert d'Aix, Op. cit., PP. 383-384

(٢) حصن الاكراد : حصن منيع يقع غربى مدينة حمص ، وعلى جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ، راجع أبوا الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٩٨٠ ، ص ٢٥٩ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٨ ، القاهرة ١٣٢٤ ، ج ٧ ، ص ٦٤ ، البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٣) حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٠٩ وأيضا : Raimondi d'Aguilers, op. cit., pp. 273-274

المقدس في عام ١٠٩٩م/٤٩٢هـ أخذوا يعانون من قلة المياه ، فاستغل المسلمون تلك المعاناة ووضعوا الكمائن على طول الطريق الممتد من المعسكر الصليبي ، وحتى ينابيع المياه على مسافة ستة أميال وقد نجحت تلك الكمائن في قتل كثير من الصليبيين الذين توجهوا للحصول على المياه^(١) كما إتهز المسلمون جهل الصليبيين بالمسالك والدروب ، ونصبوا لهم كميناً في العام نفسه عند مدينة الرملة ، وقتلوا الكثير منهم^(٢) ، وأيضا إتهز طفتكين حاكم دمشق توجه بعض الصليبيين الذين ضربوا الحصار حول مدينة صور عام ١١١١م/٥٠٥هـ إلى المناطق القريبة من المدينة لجمع الاعلاف لخيولهم ، فنصب لهم كميناً ، نتج عنه قتل بعض فرسانهم ، ووقوع البعض الآخر في الأسر^(٣) .

لم تثمر أعمال الكمائن في أحداث الخسائر في الجانب الصليبي فحسب ، إنما ساعدت أيضا في أسر أعداد كبيرة من فرسانهم ، فعندما حاول الملك الصليبي بلدوين الأول Baloduin 1 (١١٠٠ — ١١١٨م — ٥٠٤ — ٥١٢هـ) التصدي لهجمات مودود أتاك الموصل ، والذي كان يسعى انذاك جاهدا لتوحيد الجبهة الاسلامية ومعه طفتكين حاكم دمشق ، وسارع الملك الصليبي بالتوجه بقواته في عام ١١١٣م/٥٠٧هـ الى المنطقة التي تقع جنوب غرب بحيرة طبرية ، والمعروفة بجسر الصنيرة ، وقد نصبت القوات الاسلامية كميناً للصليبيين فنجح في أسر معظم قوات الملك الصليبي ، بينما تمكن بلدوين من الفرار بصعوبة بالغة^(٤)

(١) حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١٥ ، وأيضا :

Raimondi d'Aguilers, op. cit. p. 293

(٢) حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١٦ ، وأيضا :

Raimondi d'Aguilers, op. cit. pp. 294-295

(٣) ابن القلاسي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ، ص ٤٨٨ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., pp. 492-493

(٤) ابن القلاسي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٤٩٦ ، وأيضا :

Fulcher of Chartres A History of the Expedition of Jerusalem (1095 - 1127), Tennessee, U.S.A., 1969, p. 190; William of Tyre, op. cit., VOL.I. P. 306

وجدير بالاشارة ، أن أعمال الكمائن ضد الصليبيين لم تكن قاصرة على القوات العسكرية فحسب ، وإنما شاركت فيه أيضا القبائل العربية ففي عام ١١١٩م / ٥١٣١هـ قام جوسلين دي كورتناي Joscelyn de Courtenay حاكم امارة الرها (١١١٨ - ١١٣١م / ٥١٨ - ٥٢٦هـ) ، ومعه اثنان من كبار بارونات الجليل وهما الأخوان جودفري Godfrey ووليم دي بيوري William de Bury ، قاموا بشن الغارات على طائفة من طى يعرفون ببني خالد وبني ربيعة ، أقاموا في المنطقة الواقعة شرق الأردن ، وقد بدأ الصليبيون ببني خالد ، فهاجموهم واستولوا على مامعهم ، وعزموا القصد أن يبادروا بني ربيعة في صباح اليوم التالي بالهجوم ، فما كان من بني خالد الا أن أخبروا اخوانهم بأنباء الهجوم الصليبي ، فاستعدوا له ، ونصبوا كمينا للصليبيين ، نجحوا من خلاله في أسر غالبية القوة الصليبية وقوامها مائة وخمسين فارسا كان من بينهم وليم دي بور وأخوة جود فري ، بينما ضل جوسلين الطريق ، ولما بلغه خبر الواقعة ، عاد مسرعا الى طبرية^(١) . وإذا كان هذا الكمين قد آتى ثماره ، الا أننا يجب ألا ننسى أن اخبار بني خالد اخوانهم بالهجوم الصليبي هو الذي دفع بني ربيعة في اعداد الكمين .

هذا عن خدعة الكمين التي طبقها المسلمون سواء أكانوا من الفرق العسكرية أم من رجال القبائل ضد الصليبيين ، ونجحوا من خلالها في إحراز النصر عليهم ، أما عن بقية أنواع الخدع العسكرية فتمثل فيما يلي :

ثانيا : الإرتداد الظاهري :

أتاحت خفة الحركة للفرسان المسلمين القيام بأنواع مختلفة من الخدع العسكرية ، ومن بينهما خدعة الإرتداد الظاهري التي كان يصحبها عادة نصب الكمائن ، اذ كانت بعض فرق الجيش الاسلامي تتظاهر بالهزيمة وتقوم الإرتداد لدفع المهاجمين الصليبيين الى ملاحقتهم ، والتوجه الى مكان الكمين ، فيتم الاطباق عليهم . وقد مارس المسلمون هذا النوع من الخدع العسكرية

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٥٥٥-٥٥٦ ، ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٩٤ .

بأساليب مختلفة . ففي عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ هاجم الصليبيون مدينة جبلة ، ونجحوا في أحداث ثغرات في سورها ، فخرج اليهم أبو صليحة حاكم المدينة بجماعة من جيشه عن طريق باب المدينة وأخذ يقاتلهم ، وتظاهر بالهزيمة والإرتداد ، فأخذ الصليبيون يلاحقونه ، وفي تلك اللحظة كان الجيش الرئيسي لأبي صليحة قد خرج من المدينة ، وأطبق على الصليبيين من خلفهم وأحرز النصر عليهم^(١) .

كان لخدعة الإرتداد الظاهري الفضل الأكبر في انتصار المسلمين على الصليبيين في معركة حران^(٢) عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ . إذ التقى الجيشان الاسلامي والصليبي في السهل الشاسع الذي يقع جنوب نهر البليخ^(٣) .

مما منح المسلمين أرضامستوية شاسعة كي يمارسوا عليها خدعهم العسكرية إذ تظاهرت ميمنة جيش المسلمون بالهزيمة ، وأخذت في الإرتداد فظنت ميسرة الجيش الصليبي وعلى رأسها جوسلين دي كورتناى حاكم الرها أن النصر على المسلمين بات وشيكا ، فأخذت تطارد الميمنة الاسلامية الى أن انفصلت عن بقية الجيش الصليبي حتى اقتربت من موضع كمين القوات الاسلامية بالقرب من مجرى النهر ، وعندئذ خرج رجال الكمين وواجهوا الميسرة الصليبية ، بينما استدارت ميمنة الجيش الاسلامي ، فأطبق المسلمون على الصليبيين ، وأنزلوا بهم القتل والأسر ، أما بقية الجيش فأصبحت مهمته سهلة — بعد أن إنكشفت ميسرة الجيش الصليبي — من احراز النصر على بقية الصليبيين^(٤) وهكذا كانت

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣١١ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., p. 583

(٢) حران : هناك عدة مواضع تحمل هذا الاسم ، والمقصود هنا المدينة التي تقع بالقرب من الرها عند ملتقى الطرق في شرق الفرات ولاسيما طريق الشام وطريق الجزيرة ، راجع : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣) البليخ : نهر بالقرية يجتمع فيه الماء من عيون أعظمها عين يقال لها الذهبانية في أرض حران ، راجع ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٤ ، البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣٧٣ — ٣٧٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ، وأيضا :

خفة الحركة ووجود أرض سهلة متسعة قد مكنت المسلمون من القيام بخدعة الإرتداد الظاهري لاغراء الصليبيين على التوجه الى مكان الكمين ، وكان من نتائج تلك المعركة ابادة معظم الجيش الصليبي الذي كان قوامه — على حد قول المؤرخين الغربيين فوشيه دي شارتر وألبرت الأحمى — حوالى عشرة آلاف محارب^(١) ، وتم أسر العديد من القادة الصليبيين على رأسهم الملك الصليبي بلدوين الأول ، وجوسلين حاكم أمانة الرها^(٢) .

لم يقف الصليبيون مكتوفى الأيدى أمام تلك الخدع العسكرية ، انما تنهبوا لها ، وعملوا على الحيلولة دون نجاح المسلمين فى تحقيقها ، فعندما جرت الاشتباكات بين قوات تنكريد Tancred أمير أنطاكية (١١٠٤ — ١١١٢ م / ٤٩٨ — ٥٥٦ هـ) وبين قوابة رضوان بن تنش حاكم حلب (٤٨٩ — ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ — ١١١٣ م) فى عام ١١٠٥ م / ٤٩٨ هـ ، قام الصليبيون باستدراج القوات الاسلامية الى المنطقة الصخرية فى غربى مدينة حلب ، كى لا يستطيع المسلمون التحرك بخفة فى تلك المنطقة ، وممارسة أعمال الخدع العسكرية ، لذا انتهت المعركة فى غير صالح المسلمين^(٣) . والتساؤل الذى يفرض نفسه بعد تلك الحادثة هو : هل أثرت تلك الهزيمة على المسلمين ، وجعلتهم يقلعون عن ممارسة خدعة الإرتداد الظاهري ؟ .

William of Tyre, op. cit. vol.1, P. 459;

Albert d'Aix, Op. cit., pp. 614-616

(1) Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 177 - 178; Albert d'Aix, op. cit., P. 614.

(2) Michael the Syrian, op. cit., vol 111, p. 165

Radulph of Caen, Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana, in R.H.C.-H. Occ., vol. 111. p. 710

(٣) ابن القلانسى: المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ابن العديم : المصدر السابق ج٢ ، ص ١٥٠ — ١٥١ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., pp. 612 - 622;

Radulph of Caen, op. cit. pp. 714 p- 715.

لم تؤثر هزيمة المسلمين عام ١١٠٥م / ٤٩٨هـ، على ممارستهم لخدعة الارتداد الظاهري ، انما استمروا في القيام بها ضمن خططهم العسكرية بل استخدموها ضد القوات الصليبية بقيادة الملك الصليبي بلدوين الاول وجوسلين دى كورتناى حاكم الرها بعد أن تم اطلاق سراحهما ، والذين سبق أن انهزما بفضل قيام المسلمين بتلك الخدعة . ففي عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ التقى الجيشان بالقرب من بحيرة طبرية ، ونجح المسلمون في إستدراج القوات الصليبية الى موضع الكمين بالقرب من جسر الصنبرة^(١) ، وأحرزوا النصر عليهم وهذا يدل على أن المسلمين استخدموا أساليب مختلفة لاغراء الصليبيين على ملاحقتهم الى موضع الكمين .

ومن بين تلك الأساليب التي قام بها المسلمون لانهاج خدعة الارتداد الظاهري ما جرى عام ١١١٥م / ٥٠٩هـ عندما التقى الجيش السلجوق بقيادة برسق بن برسق ، والقوات الصليبية بقيادة روجر Roger أمير أنطاكية (١١١٢ — ١١١٩م / ٥٠٦ — ٥١٣هـ) ومعه بونز - Pons أمير طرابلس (١١١٣ — ١١٣٧م / ٥٣٢ — ٥٠٧هـ) ، والملك الصليبي بلدوين - الثاني (١١١٨ — ١١٣١م / ٥٢٦هـ) أمام مدينة كفرطاب^(٢) ، والتي كانت انذاك بحوزة الصليبيين ، بينما كانت قوات برسق تحاصرها في محاولة لاستردادها ، وعندما رأى برسق تلك الحشود الصليبية الضخمة تظاهر بفك الحصار حول كفرطاب ،

(١) عن أحداث تلك المعركة راجع ماسبق .

(٢) كفرطاب : بلدة في الشام ، تقع بين مدينة معرة النعمان وبين معرة النعمان راجع : البغدادي . المصدر السابق ، ج-٣ ، ص ١١٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج-١٠ ، ص ٥١٠ ، ابن العديم : المصدر السابق ج-٢ ، ص ١٧٤ — ١٧٥ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., pp. 501 - 353;

Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 211 - 212;

Albert d'Aix, op. cit., p. 701

والعودة الى اقليم الجزيرة ، فظن الملك الصليبي بلدوين ومعه بونز وروجر أن الخطر قد زال ، فعاد كل منهم الى منطقتة نفوذه ، بينما استدار برسق في سرعة فائقة وهاجم كفرطاب ، ونجح في إستردادها^(١) .

أنزلت تلك الخدعة العسكرية الخوف والهلع في قلوب الصليبيين وجعلتهم يتوقعون أن يقدم المسلمون بها في معظم معاركهم معهم ، ومن ثم أخذوا يتوخون الحذر في ملاحقة المسلمين خوفاً من الوقوع في الكمائن ، ففي عام ١١٥٨م/٥٥٣هـ جرت المعركة بين قوات نور الدين محمود ، وبين القوات الصليبية بقيادة ملكهم بلدوين الثالث (١١٤٤ — ١١٦٢م/٥٣٩ — ٥٥٨هـ) بالقرب من بحيرة طبرية ، وكان النصر في تلك الوقعة حليف الصليبيين إذ اخذت القوات الاسلامية في التراجع ، بينما خشى الصليبيون أن يكون ذلك التفهقر دربا من دروب الخدع العسكرية المعهودة عند المسلمين على أنفسهم في معاركهم مع الصليبيين ، فتواجهوا عن متابعة الفلول الاسلامية وضيعوا على أنفسهم فرحة احراز النصر على المسلمين ، واستغلال حالة الاضطراب التي عمت صفوفهم ، وذلك خوفاً من الوقوع في الكمين^(٢) .

إستمر المسلمون في ممارسة خدعة الارتداد الظاهري ، بالرغم من أن الصليبيين قد فطنوا لها ، وحذروا منها ، فبينما كان السياق على أشده بين قوات نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، وبين الصليبيين بقيادة ملكهم عموري الأول للفور بضم مصر في وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية في طور الاحتضار قام نور الدين بدوره في مهاجمة الممالك الصليبية في الشام ندفع الصليبيين الى سرعة العودة ، والرحيل عن أرض مصر للدفاع عن ممالكهم^(٣) إذ هاجم نور الدين في عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ حصن حارم ، والذي كان آنذاك بحوزة الصليبيين ، ويخضع لسيطرة بوهمند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣ — ١٢٠١م/٥٥٨ — ٥٥٩٨هـ) فاستنجد بيهمند برعموند الثالث Raymond III أمير طرابلس (١١٥٢ — ١١٨٧م/١١٨٧)

(١) ابن نفلانسي المصدر سبق . ص ٣٥٢ . أيضا .

William et Tyre, op. cit . vol. II, pp. 271 - 272

(٢) ابن نفلانسي المصدر سبق . ص ٣٥٢ .

٥٤٧ — ٥٥٨٣ هـ) ، وثورس الثاني Thoros II أمير أرمينية (١١٤٤ — ١١٦٧م/٥٣٩ — ٥٦٢ هـ) ، قسطنطين كولومون Constantin Colomon القائد البيزنطي في قليقية ، وتوجه بتلك الحشود الصليبية لمواجهة قوات نور الدين ، واصطف الفريقان للقتال واتفق المسلمون على أن تتظاهر ميمنة جيشهم بالهزيمة ، وتقوم بالانسحاب حتى تجذب فرسان الصليبيين خلفها ، فيبتعدوا عن المشاة^(١) . وعندما بدأت المعركة ، نفذت قوات الميمنة الاسلامية ما دبروه من خدعة ، فلما ابتعد فرسان الفرنج عن المشاة ، هجم بقية الجيش الاسلامي على المشاة وبادوهم ، وعندما أيقن الفرسان خطورة ابتعادهم عن المشاة ، استداروا لنجدتهم ، ولكن بعد فوات الأوان . اذ استدارت الميمنة الاسلامية هي الاخرى ، وأصبح الفرسان محاصرين بين القوات الاسلامية وعجزوا عن الفرار وأكثر فيهم المسلمين القتل والاسر ، فكان من جملة الاسرى يوهمند ، ويهوند وقسطنطين كولومون. بينما نجح ثورس في الفرار من أرض المعركة^(٢) .

وإذا كان نور الدين قد حقق للظفر على الصليبيين في الشام باستخدام تلك الخدعة ، فان قائده أسد الدين شيركوه قد أصاب نفس النجاح على أرض مصر ، باتباع الخدعة نفسها ، مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليها . فعندما تجمع الجيش الصليبي بقيادة الملك عموري الأول ، ومعه جيش الوزير الفاطمي شاور ، لمواجهة قوات أسد الدين شيركوه عام ١١٦٧م/٥٦٢ هـ التقى الجمعان في منطقة الصعيد عند موضع يسمى بالباين عندما اصطف الفريقان للقتال ، عرف شيركوه أن حملة الصليبيين ستكون على القلب ظنا منهم أنه يتولى قيادته ، لذا وضع الاثقال في القلب ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين على قيادته ، وطلب منه أن يتظاهر

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ . ص ٣٣ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ . ص ١٣٣ — ١٣٤ . ص وصل : المصدر السابق ، ج ١ ص

١٤٥ ، وأيضاً :

William of Tyre, op. cit., pp 307 - 308

Michael the Syrian, op. cit 111, p. 324

بالمهزومة والارتداد عند حملة الفرنج عليه ، ويظل في الارتداد ولا يقاتلهم ، فاذا عادوا منه عليه بالرجوع في أعقابهم ، بينما اصطحب شيركوه جماعة من خيرة فرسانه ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقاتلت الطائفتان ، جرى ماتوقعه شيركوه اذ حمل الفرنج على القلب ، وأخذوا في ملاحقة قوات صلاح الدين ، فحمل شيركوه على من تبقى من جيش الفرنج وشاور ، وأكثر فيهم القتل والأسر ، فلما شعر الملاحقون من الفرنج بذلك ، عادوا مسرعين ، فأطبق عليهم المسلمون وأحرزوا النصر عليهم^(١) .

ثالثا : الهجوم التتويى :

ومن الخدع العسكرية الاسلامية أيضا ما يعرف بالمهجوم التتويى وذلك بأن تتظاهر القوات الاسلامية بالمهجوم على منطقة لتحويل أنظار الصليبيين عن الهجوم الرئيسى ، ففي عام ١١١٩م/٥١٣هـ كانت الوقعة بين القوات الصليبية بقيادة روجر أمير أنطاكية وبين القوات الاسلامية بقيادة ايلغازى الأرتقى ، اذ تقدم الفرنج الى المنطقة الجبلية شمالى قلعة ، الأثارب^(١) ، وظنوا أن أحدا لايسلك اليهم لضيق الطريق ، وخذلوا الى السكون ، وراسلوا ايلغازى يقولون له لاتعب نفسك بالمسير الينا ، فنحن واصلون اليك^(٢) وأراد ايلغازى أن يحول أنظار الصليبيين عن تقدم قواته لتطويقهم ، فأرسل سراياه لمهاجمة قلعة الأثارب^(٣) فظن الفرنج أن المسلمين قد تحولوا عنهم لهجوم آخر ، فلم يشعروا الا والقوات الاسلامية قد غشيتهم ، وأحاطوا بهم من جميع الجهات ، وحملوا عليهم ضربا بالسيوف ورشقا بالسهام ،

(١) قلعة الأثارب : في شمال الشام ، وتقع بين مدينتي حلب وأنطاكية ، راجع : باقوت الحسرى : المصدر السابق ج١ ص ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٥٤ .

(٣) ابن العديم : المصدر السابق . ج٢ ، ص ١٨٨ .

فلم يفلت منهم سوى نفر يسير ، بينما كان الباقي بين قتيل وأسير ، وكان من جملة القتلى روجر. حاكم أنطاكية^(١) .

أُمرت خدعة الهجوم التمويهى أيضا بنجاح المسلمين في استرداد مدينة الرها من أيدي الصليبيين ، فعندما أراد عماد الدين زنكى استعادة المدينة من حاكمها الصليبي جوسلين الثاني رأى أنه متى خرج لقصد محاصرتها اجتمع فيها الفرنج ، ودافعوا عنها ، فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة^(٢) ، وأنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها ، فلجأ الى أعمال الخداع كى يغرى جوسلين على الخروج منها^(٣) ، فتظاهر بانشغاله بمهاجمة الأرتقة في ديار بكر ، ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد ديارهم فلما اطمأنوا وفارق جوسلين الرها ، جاءت عيون زنكى إليه فأخبرته^(٤) فجمع القوات وسار تجاه الرها في جمادى الآخر ٥٣٩هـ/نوفمبر ١١٤٤م وضرب الحصار حولها لمدة أربعة أيام ، فبئس من بداخلها من وصول النجدات اليهم ، وقاموا بعدة محاولات لفك الحصار ، انتهت بالفشل ، ونجح القوات الاسلامية في دخول المدينة^(٥) ، وكانت الرها أول حاضرة امارة

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٥٥٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩٠ وأيضا :

William of Tyre, op. cit., vol.1, pp. 523 - 526;

Albert d'Aix, op. cit., p. 683;

Fulcher of Chartres; op. cit., pp. 227 - 231

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٩٨

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٩٨ — ٩٩

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٩ ، ابن العديم : مصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٧٨ —

٢٧٩ ، ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٣ : ٩٤ وأيضا :

William of Tyre; op. cit., vol 11, pp. 140 - 143;

Michael the Syrian; op. cit., vol 111, pp. 259 - 263

Roger of Wendover, The Flowers of History, 2 vol . London, 1888, vol.11, pp 163 - 165

صليبية يستردها المسلمون ، وفي الوقت نفسه حاضره أول إمارة أقاليم اللاتين في الشرق الأدنى الاسلامي .

سار نور الدين محمود على نهج أبيه عماد الدين زنكي في العمل على توحيد كلمة المسلمين وجيبتهم أثناء صراعهم مع الصليبيين ، كما سلك درب أبيه في اتباع الحيل والخدع العسكرية في معاركه مع الفرنج ، ومنها اتباع خدعة الهجوم القوي . فبعد أن فتح مدينة حارم عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ ، أراد أن يفتح مدينة بانياس ، وكانت آنذاك بحوزة الفرنج ، فقام باتباع تلك الخدعة وأظهر أنه يريد طبرية ، فتوجهت أنظار الفرنج اليها ، وأعملوا على حفظها وتقويتها ، عندئذ سار نور الدين الى بانياس لعلمه بقلّة من فيها من الحماة ، بعدما قتل معظم فرسانها في معركة حارم السابقة^(١) ، فنازلها ، وضيق الحصار عليها ، حتى أحرز النصر على من بداخلها ، وأعادها من أيدي الفرنج^(٢) .

وهكذا حقق المسلمون النصر على الصليبيين باتباع تلك الخدعة ، ونجحوا في استعادة كثير من المدن الاسلامية التي سبق أن استولى عليها الفرنج في وقت بدأ فيه ميزان القوى في الصراع الصليبي الإسلامي يعتدل — بعدما كان في صالح الصليبيين ، وذلك بفضل الجهود التي بذلها رواد الوحدة الاسلامية : مودود ، وزنكي ، ونور الدين محمود . ولا شك أن الصحوه الاسلامية كانت عاملا له وزنه في انجاح الخدع الاسلامية .

رابعا : استغلال الظواهر الطبيعية في العمليات العسكرية :

نجح المسلمون في الاستفادة من الظواهر الطبيعية العديدة ، واستغلوا مخادعة الصليبيين ، واحراز النصر عليهم ، ففي عام ١١٢٢م/٥١٦هـ التقت القوات

(١) عن تلك المعركة راجع ما سبق ص ٢٥ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٠٤ . ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص

٣٢١ . أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٩ . وأيضا :

الإسلامية بقيادة ملك غازي بن بهرام صاحب خرتيرت، بالقوات الصليبية بقيادة جوسلين دي كورتيناى حاكم إمارة الرها بالقرب من بلدة سروج^(١) واستغل المسلمون هطول الأمطار على السهل القريب من تلك المنطقة، وأحاله إلى أرض رديئة، فعملوا على جذب الصليبيين إلى تلك المنطقة الموحلة لعلهم أن الصليبيين لم يعتادوا على القتال فوق سطح تلك الأراضي، ونجحت الخدعة الإسلامية، وأحرز المسلمون النصر على الصليبيين، بفضل خفة حركة المحاريز المسلمين من جهة، واعتيادهم على القتال على الأراضي الموحلة من جهة أخرى، وكان من نتائج تلك المعركة وقوع جوسلين الثاني أسيرا في قبضة ملك بن بهرام^(٢).

استغل المسلمون الظاهرة نفسها ولكن بأسلوب مغاير ضد الصليبيين في مناسبة أخرى، فعندما حاول الملك الصليبي عموري الأول غزو مصر عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ، تصدى له الوزير الفاطمي ضرغام عند بليس، واستغل فيضان النيل وقتذاك، فحطم السدود، فأغرقت المياه المناطق المحيطة وقتل البعض الآخر، كما قامت القوات الإسلامية بادخال التغيرات بين الحين والآخر على تلك الخدعة العسكرية، مما جعلها تستمر وتثمر في الصراع الإسلامي الصليبي وتقوم بها القوات العسكرية الإسلامية، وأيضا القبائل البدوية، لانزال الخسائر بالصليبيين.

وبالنسبة لخدعة الارتداد الظاهري، فقد طبقها المسلمون بأساليب مختلفة ونجحوا عن طريقها في احراز النصر على الصليبيين في العديد من المعارك، كان أشهرها على الاطلاق معركة حران عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ والتي أيدت فيها غالبية القوات الصليبية مما جعل الصليبيين يحدرون تلك الخدعة العسكرية الإسلامية، ويضعون العراقيل في سبيل نجاحها.

(١) سروج : بلدة في منطفة الخزيرة عراقية . تقع بالقرب من مدينتي حران والبيروا راجع : العديدي

نصار . سبق . ج ٢ . ص ٧٠ .

(٢) ارجع الفلاسى مصدر سبق . ص ٢٠٨ . من لآله . مصدر اسنار ج ١ . ص ٥٩٣ . ص

نعمه . مصدر سبق . ج ٢ . ص ٢٦٠ .

ومن الخدع العسكرية الاسلامية أيضا ما يعرف بالهجوم التمويهي الذي نجحوا عن طريقه في استعادة العديد من المدن الاسلامية التي سبق أن استولى عليها الصليبيون كان أعظمها على الإطلاق مدينة الرها . وأوضحنا مدى نجاح المسلمين في استخدام الظواهر الطبيعية كالمطر والجبال والأنهار في الخدع العسكرية ضد الصليبيين ، وما حققوه من ورائها من نتائج .

ومما هو جدير بالإشارة أن الخيل والخدع العسكرية الاسلامية في الصراع الاسلامي الصليبي لم تتوقف بوفاة رائد الوحدة الاسلامية نور الدين محمود حتى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ وإنما استمرت في عهد صلاح الدين مؤسس الدولة الايوبية وخلفائه من بعده كما مارسها الماليك في صراعاتهم مع الصليبيين الى أن تم رحيلهم عن الشرق الأدنى الاسلامي بعد سقوط اخر معاقلهم في عكا عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ .

وإذا كان المسلمون قد تفوقوا على الصليبيين في الخيل والخدع العسكرية ، فلا يرجع ذلك الى صفات تميزوا بهم عنهم كالجرأة والشجاعة والاقدام والمغامرة فحسب ، ولا يرجع أيضا الى إجادتهم لفن الحرب والقتال والتكتيك العسكري فقط ، وإنما يرجع — فضلا عما تقدم — الى معرفتهم التامة بجغرافية بلادهم وطبوغرافيتها ومسالكها ودروبها بينما كان خصومهم يجهلون جغرافية منطقة الشرق الأدنى ، كما يرجع الى خفة حركتهم وخفة لباسهم في منطقة تتميز بجوها الحار ، بينما كان أعداؤهم يرزحون تحت ملابسهم الحديدية الثقيلة وخوذاتهم وجيادهم الضخمة التي لا تصلح لحرب الكروالفر والتي أتاحت للمسلمين نصب شباكهم للإيقاع بهم .

Fulcher of Chartres, op. cit , p. 204;

Matthew d'Edesse, Chronique, in R.H.C. - Doc. Arm.

VOL. II, p. 131;

William of Tyre, op. cit., vol. 1., p. 540

الفصل السادس

معاهدات وهدنات السلام بين الدانين
وأهل الجزيرة البريطانية فى النصف الثانى
من القرن التاسع الميلاى
دراسة وتحليل

شهدت إنجلترا خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي حروباً عديدة، وهجمات شرسة، قام بها الدانيون^(١)، كما شهدت في الوقت نفسه فترات من الهدوء النسبي والسلم بما تم عقده من معاهدات بين الدانيين وأهل الجزيرة البريطانية.

وقد اختلف المعاهدات والهدنات التي جرى عقدها بين الجانبين من حيث أسبابها ومبرراتها، والدوافع التي أدت إلى عقدها، كذلك، من حيث مكانة الموقعين عليها وما تضمنته من بنود وإن كانت في مجملها في صالح الدانيين.

وتعد الهدنة التي تم الإتفاق عليها بين زعماء الدانيين، وأهل مملكة كنت من الجوت أول هذه الهدنات بين الجانبين خلال هذه الفترة. وقد اختلف المصادر في تحديد تاريخ الإتفاق عليها إذ يشير إليها متى أوف وستيمستر Matthew of Westminster ضمن أحداث عام ٨٦٣^(٢)، بينما يرى روجر دي هوفدن "أنها كانت في عام ٨٦٤م^(٣). أما وثائق الانجلوسكسون

(١) عن هذه الهجمات أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسي)، ط ٤، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٣٣-٢٣٥؛ جوزيف نسيم يوسف: تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور الوسطى، الاسكندرية، ١٩٨٧، ص ١٤٥-١٥٢؛ السيد الباز العريني: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت ١٩٦٧، ص ٣٦٠-٣٦١، محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الاسكندرية ١٩٩٠، ص ٣٠٠-٣٠٣؛ وأيضا: أنظر بحثنا المعنون: "الغزو الداني لانجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي في ضوء الوثائق الانجليزية".

(٢) Matthew of Westminster, The Flowers of history, 2 vols, London, 1853, vol. I, P. 407.

(٣) Roger de Hoveden, Annals, 2 vols, London, 1985, vol. I, P. 43.

Anglo Saxon Chronicle فتشير إليها ضمن الأحداث الممتدة بين عامي ٨٦٥ - ٨٦٦م^(٤).

ويأتى إختلاف المصادر كما يتضح فيما بين عامي ٨٦٣ - ٨٦٦م وهذا لا يمثل إختلافا جوهريا، لأن الهجمات الدانية في هذه الفترة كانت تحدث في فصل الصيف، وتتوقف تماما في الشتاء^(٥)، وعلى هذا يمكن القول أن أهل كنت فكروا في هذا الصلح عند بداية هجوم الدانين على كنت في صيف عام ٨٦٣م، ولما عاود الدانيون الهجوم في العيام الثاني، أحدثوا ذعرا وخوقا عظيمين بين السكان مما جعل أهلها يسرعون لشراء السلم من الدانين بعقد هذا الصلح ورغم أن المصادر لم تشر إلى ما تم الإتفاق عليه في هذه الهدنة إلا أنه يمكن أن نستنتج أبرز شروطها: أن تتوقف عمليات السلب والنهب الدانية في مملكة كنت، وأن يتعهد الدانيون بمغادرة المملكة على وجه السرعة. ومما يؤكد هذا الإستنتاج ما أشارت إليه المصادر من أن الدانين نكثوا عهودهم وأحرقوا الميثاق بعد أن حصلوا على المال من أهل المملكة، وتسللوا من معسكراتهم ليلا، وقاموا بعمليات السلب والنهب في معظم مناطق الساحل الشرقي للمملكة، طمعا في الحصول على مزيد من المكاسب^(٦).

أما عن الشخصيات التي لعبت دورا في الإتفاق على هذه الهدنة فليس تحديدها بالأمر اليسير، خاصة وأن إشارات المصادر كانت غامضة، وأكدت بالقول أنها تمت بين الدانين، وأهل كنت ولما كان الدانيون في هذه الفترة جماعات متفرقة تحت قيادة مجموعة من الزعماء^(٧)، وأن المصادر لم تحدد

- (٤) The Anglo Saxon Chronicle, cf. English Historical Documents [E.H.D.], 1 vols, London, 1968, Vol. I, P. 67.
(٥) Trevelyan, G., M. History of England, New York, 1928, PP. 69-90.
(٦) The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 167; Roger de Hovden, Op.Cit., Vol. I, P. 43;
Matthew of Westminster, Op.Cit., Vol. I, P. 407.
(٧) Hashkins, H., The Normans in European history, 7New York, 1959, P.33.

أيضا المنطقة التي عقدت بها المعاهدة في ممكن كنت، فإن كل ما يمكن أن نقوله في هذا المقام، أنها تمت بين زعماء الدانين من ناحية والإيرل حاكم المنطقة التي تعرضت للهجوم فتذاك من ناحية أخرى.

وفي نفس الوقت كنا نود أن نعرض لنتائج هذه الهدنة لولا أن المصادر أشارت إلى أن الدانين لم يلتزموا بها وقاموا بخرقها بعد التوقيع عليها مباشرة، لذلك نميل إلى القول أن هذه الهدنة لم تؤد إلى نتائج مؤثرة، أو تغييرات ملموسة خاصة بالنسبة لمملكة كنت التي أمل أهلها في انتزاع السلام والهدوء من هؤلاء الغزاة ولكن هؤلاء لم يمنحوهم ذلك بسهولة.

وتتفرد وثائق الانجلوسكسون^(٨) بالإشارة إلى عقد هدنة أخرى بين الدانين وأهل مملكة انجاليا الشرقية East Anglia عام ٨٦٦م، وتشير الوثائق إلى أن سببها يرجع إلى وصول حشود كبيرة من الدانين إلى انجاليا الشرقية بقيادة أبناء الملك الداني رجنار لوثيروك Ragner Lothbrock^(٩)، وأن هؤلاء الدانين نجحوا في الاستيلاء على أعداد كبيرة من الخيول في هذه المنطقة الانجليزية، ورغم أن المؤرخ متى اوف وستينسر لم يشير إلى هذه الهدنة إلا أنه أوضح أسبابها عند ألمح بالإشارة إلى أن حصول الدانين على الخيول جعلتهم يتحولون من مشاه إلى فرسان^(١٠).

وقد أدى هذا التحول بطبيعة الحال إلى زيادة خطورتهم، مما دفع أهل انجاليا الشرقية إلى الإسراع بعقد هدنة معهم، تجنباً للمخاطر التي يتعرضون

(٨) The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 176.

(٩) كانوا بمثابة ملوك أنظر:

Memorials of St. Edmund's Abbey, ed M. Arnold, Oxford, 1904, P. 9.

Matthew of westminster, Op.Cit., Vol. I, P. 407. (١٠)

لها نتيجة هذا التحول، ولم تشر وثائق الانجلوسكسون إلى شروط هذه الهدنة، وإن أوضحت أنها تعد أول هدنة يوقعها الملوك الدانين مع الاتجليز.

وإذا كانت وثائق الانجلوسكسون قد إنفردت بالإشارة إلى الهدنة سالفة الذكر فإن معظم المصادر أجمعت على ذكر معاهدة عقدت بين الدانين وأهل مملكة نورثمبريا في ابريل عام ٨٦٧م^(١١). والتي ترجع أسبابها إلى التمرد الذي قام به أهل نورثمبريا ضد ملكهم^(١٢)، فانتهز الدانيون هذا النزاع وهاجموا المملكة، ونجحوا في قتل ملكها، وتعين أحد المتعاونين معهم من النور بمثريين ويدعى اجبرت Egbert ليتولى حكمها، ثم عقدوا معاهدة سلام مع أهل نورثمبريا^(١٣).

أما عن شروط هذه المعاهدة كما أوردتها المصادر فيمكن أن نوجزها في الآتي: - أن ينعم أهل نوريمثريا بالسلام، وأن يكف الدانيون عن عمليات السلب والنهب في المملكة طالما وافق أهلها على أن يتولى حكمهم الملك أجبرت لمدة ست سنوات^(١٤).

(١١) The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 176; Roger of Wendover, Flors Hestorarum, cf, E.H.D., Vol. I, P. 256; Roger de Hoveden, Op.Cit., Vol. I, P. 44; Matthew of Westminister, Op.Cit., P. 408.

(١٢) لمزيد من التفاصيل أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص ٢٣٣ وأيضا: بحثنا المعنون "الغز الداني لانجلترا".

(١٣) Symeon, Monachi Opera, ed. M. Arnold, 3 vols, London, 882, Vol. III, P. 106.

(١٤) The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., P. 176; Roger of Wendover, Op.Cit., Vol. I, P. 256; Roger de Hoveden, Op.Cit., Vol. I, P. 44.

وأخطر ما ترتب على هذه المعاهدة من نتائج أن الملك أحييت صنيح
الدائين نجح في أن يسيطر على مملكتي انجليا الشرقية وكننت(١٥) إذ على
الرغم بيد أنه وصل إلى الحكم بطريقة عدما أهل نوريمثريا تسلا على
أكتاف الدائنين إلا أن هذا الملك فيما يبدو أظهر نشاطا جما ودأبا وحماسة في
مد تفوذ مملكته وتوسيع رقعة سلطانها في ذلك الوقت.

والتساؤل الذى يطرح نفسه في هذا المقام هو. لماذا لم يحكم الدائنيون
مملكة نوريمثريا حكما مباشرا، وأختاروا جبرت كى يتولى هذه المهمة؟.
ويمكن الرد على هذا التساؤل بأنه يبدو أن الدائنين كانوا يفتقرون فى ذهه
الفترة إلى المهارة فى الشئون السياسية ولا يستطيعون إدارة مملكة إنجليزية
لها تطمها وتاريخها الطويل فى الناحية الإدارية فاختاروا أحد رجالها ممن
لهم القدرة على إدارة دفة الحكم فى تلك المملكة بنجاح كى يتولى هذا الأمر،
ويكون فى الوقت نفسه من صنائعهم فى المملكة، ويدين لهم بالفضل وبذلك
يحقق الدائنيون أكثر من هدف فى وقت واحد: أولها ضمان إدارة لمملكة بما
يتمشى مع سياستهم من ناحية ومن ناحية أخرى التظاهر أمام رعايا
نوريمثريا بأن الحاكم هو رجل من أهلها مما يخفف من وطأة المعارضة،
وينتزع من نفوس النورثمبريين روح الحقد والكراهية للقراه الدائنين.

أما عن الشخصيات التى عقدت هذه المعاهدة فقد أشارت وثائق
الانجلوسكسون إلى أنه تسعة من إيرلات نوريمثريا(١٦) قاموا بعقد هذا
الصلح مع بعض الملوك الدائنين من أبناء رجنار، لوثيروك على الرغم من أن
هذه الوثائق لم تحدد أسماء هؤلاء الايرلات الانجليز أو المناطق التى
حكموها من مملكة نورثمبريا.

Matthew of Westminster, Op.Cit., P. 408.

(١٥)

The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 176.

(١٦)

وإذا كانت المعاهدة التي عقدها أهل نوريمثريا مع الدانين لها أسبابها ومبرراتها، وما ترتب عليها من نتائج فإن الهدنة التي عقدها بورجارد Burgard ملك مرسيا مع الملوك الدانين لم يكن لها مثل المبررات السابقة إذ تشير المصادر إلى أن الجيش الداني بقيادة أبناء رجنار لوثيروك اتجه في عام ٨٦٨م إلى مملكة مرسيا الانجليزية، وقضى الشتاء في نوتنجهام Nottingham مما أزعج ملك مرسيا بورجارد، فأسرع يطلب النجدة والعون من إثلرد Ethelard ملك وسكس وزعيم السكسون الغربيين، فحشد الأخير قواته واصطحب معه أخاه ألفرد Alfred وتوجه إلى مرسيا حيث إتحدت قوات مملكة مرسيا ووسكس، وأصبحت تشكل قوة هائلة، وإتجهت إلى المعسكر الداني عند نوتنجهام، وشنت الهجمات المتتالية على القوات الدانية التي استبسلت في الدفاع عن نفسها، ورغم هذا التفوق الانجلوسكسوني، إلا أن المصادر تشير إلى أن الملك بورجارد ملك مرسيا قام بعقد هدنة مع زعماء الدانين من أبناء رجنار لوثيروك مما دفع الملك إثلرد وأخيه ألفرد إلى العودة إلى مملكتهم^(١٧).

ورغم أن المصادر لم تشير إلى شروط هذه الهدنة إلا أنه يمكن أن نستشفها، ونشير إلى أنه نظرا للتفوق العسكري الانجليزي وقتذاك، فإن الشروط تنحصر في انسحاب الدانين من مملكة مرسيا دون أن يساورهم الانجليز بالهجوم.

ومما يؤكد هذا الاستنتاج أن الدانين عادوا إلى مهاجمة مملكة مرسيا عام ٨٦٩م وظلوا يشددون هجماتهم إلى أن نجحوا في السيطرة عليها بعد

(١٧) The Anglo Saxon Chronicle, Op. Cit., Vol. I, P. 176;
Roger de Hoveden, Op.Cit., Vol. I, P. 44;
Matthew of Westminster, Op.Cit., Vol. I, P 409.

عزل ملكها بورجارد، وبعد أن عقدوا في عام ٨٧٤م صلحا آخر مع أهل مرسيا يشبه إلى حد كبير صلحهم السابق مع أهل نورثمبريا^(١٨).

هذا عن الهدنات ومعاهدات السلام بين الدانين والجبوت في كنت، والاتجيز في نوربمثيريا وانجاليا الشرقية ومرسيا، والتي نتج عنها سيطرة الدانين على معظم أراضي هذه الممالك.

أما عن الهدنات ومعاهدات السلام بين الدانين والسكسون الغربيين خاصة في مملكة وسكس، فقد بدأت عقب تولية الملك ألفرد عرش المملكة. إذ تشير المصادر إلى قيام الملك ألفرد بتوقيع هدنة مع الدانين في أواخر عام ٨٧١م، وفي ظروف خاصة فقد اضطر ملك وسكس إلى توقيع هذا الصلح بعد الانتصار الذي حققه الدانيون على قواته في معركة ويلتون Wilton في مارس عام ٨٧١م^(١٩). ويمكن إضافة سبب آخر للتوقيع على هذه الهدنة في تلك الفترة، وهو حاجة الملك ألفرد لفترة من الهدوء لإعادة تنظيم قواته وتدبير شئون مملكته، والاستعداد للمواجهة الشاملة مع الدانين^(٢٠).

ولم تشير المصادر أيضا إلى شروط هذه الهدنة، ولكن يبدو أن الملك ألفرد اضطر إلى شراء السلم بالمال لأن الوثائق الانجلوسكسونية تشير إلى أن السكسون الغربيين هم الذين سعوا إلى السلم مع أعدائهم^(٢١)، وفي ضوء ذلك

The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol.I, P. 178, Symeon, Op.Cit., (١٨)
Vol. II, P. 110;

Letter of Pope John VIII to Ethelard archbishop of Canterbury and Wulfred archbishop of York, cf. E.H.D., Op.Cit., Vol. I, P. 811;

Roger de Hoveden, Op.Cit., Vol.I, P. 48.

The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 178, (١٩)

Matthew of Westminster, Op.Cit., Vol. I, PP. 425-426.

Whitelock, D., The Beginning of the English Society, London, 1954, (٢٠)
P. 48.

The Anglo Saxon chronicle, Ibid. (٢١)

يمكن القول أن هذه الهدنة نصبت على أن يغادر الدانيون على وجه السرعة مملكة وسكس في مقابل الحصول على الأموال من الملك ألفرد وما يرجح هذا الاستنتاج أن الدانيين لم يهاجموا مملكة وسكس خلال هذه الفترة، وإنما وجهوا أنظارهم شطرا مملكة مرسيا.

إذا كان السكسون الغربيون قد سعوا إلى السلام في هدنة عام ٨٧١م فقد تبدلت الأمور بعد ذلك، وأصبح الدانيون هم الساعين إلى الصلح عند وارهام Wareham فأسرعوا بمناشدة الملك ألفرد عقد الصلح معهم، على أن يسمح لهم بمخادرة المنطقة في أمان، بعد ما يؤدون القسم^(٢٣) ويقدمون بعض الرهائن ضمانا لالتزامهم بمخادرة المنطقة على وجه السرعة^(٢٤).

ولهذا وافق الملك ألفرد على هذا الصلح، وبدأ الدانيون في الإلتسحاب ويبدو أنهم كانوا يخشون عاقبة التباطؤ في الإلتسحاب، فأبحروا في الوقت الذي اشتدت فيه الرياح، فاصطدمت بعض سفنهم بجزيرة صخرية عند سوناج Swanage أثناء إبحارهم من وارهام إلى اكستر Excter مما أدى إلى تحطيم بعض السفن الدانية، وغرق مائة وعشرين سفينة^(٢٥) بمن عليها من البحارة^(٢٥).

(٢٢) كان الدانيون وقتذاك على وثبيتهم ويقسمون بالجرس المقدس الذي كانوا يضعونه من الجزء الداخلي من معابدهم، كما كان ملوكهم يعلقون هذه الأجراس على صدورهم. ولمزيد من التفاصيل أنظر:

Whitelock, D., Saga book of the Viking Society, London, 1954, PP. 165-167.

The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 176; (٢٣)

Mathaw of Westminster, Op.Cit.I, Vol. I, P. 428.

The Anglo Saxon Chronicle, Ibid. (٢٤)

Mathew of Westminister, Op.Cit., Vol.I, P. 429. (٢٥)

وتنفرد وثائق الانجلوسكسون بالإشارة إلى أن الملك ألفرد قد عقد صلحا آخر مع الدانين عام ٨٧٧م عند اكستر. وذلك عندما تتبع ملوك الدانين الذين غادروا وارهام، وتوجهوا إلى هذه المنطقة^(٢٦) في مملكة وسكس.

ويبدو أنه كان هناك ما يبرر هذا الصلح إذ أن الدانين لم يلتزموا بشروط الهدنة التي عقدت في العام السابق، وعلى الرغم من انسحابهم من وارهام - كما أشرنا - إلا أنهم بادروا بالتوجه إلى منطقة أخرى في ممكن وسكس، ولذا أرى الملك ألفرد ضرورة محاربتهم، وأرغامهم على مغادرة مملكته. فقام بمحاصرة معسكرهم في اكستر، وشن عليهم الهجمات، حتى أذعن الدانيون، وطلبوا الصلح للمرة الثانية، وقدموا له الرهائن أكثر مما طلب، وغادروا مملكة السكسون الغربية إلى مملكة مرسيا في أغسطس عام ٨٧٧م^(٢٧).

وتعتبر المعاهدة التي عقدت بين الملك ألفرد والملك الداني جوثروم Guthrum في مارس عام ٨٧٨م على جانب كبير من الأهمية إذ تتميز عن سائر المعاهدات السابقة بأن ترتب عليها إعتناق الملك الداني وعدد ليس قليل من أتباعه الديانة المسيحية^(٢٨)، مما يعد انجازا هاما حققه الملك ألفرد مع الدانين^(٢٩)، هذا فضلا عن أنها هذبت سلوكهم غير المتحضر وقومت كثيرا من أسلوبهم الهمجي إذ لم يكن لهم وازع ديني يردعهم عن ارتكاب أعمالهم المشينة وهجماتهم المدمرة^(٣٠).

-
- The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 179. (٢٦)
The Anglo Saxon Chronicle, Ibid. (٢٧)
Rayner, R.M., A consise history of Britian, London, 1939, P. 16. (٢٨)
Koenigsberger, H.G., Medieval Europe (400-1500), New York, 1987, (٢٩)
P. 96;
Morris, B., The pelican Book of the Middle Ages, London, 1982, P. 39.
Asscr, The life of king Alfred, ed. W.H. Stevenson Oxford, 1904, P.16. (٣٠)

ولقد عقدت هذه المعاهدة عقب الانتصار الذي حققه السكسون الغربيون على الدانيين في أدنجتون Edington، مما اضطر معه هؤلاء الى عقد معاهدة سلام مع الملك ألفرد تعهدوا فيها بمغادرة مملكة وسكس والاتسحاب من أراضى هذه المملكة بعد تقديم بعض الرهائن من المميزين من رجالهم، ورضى الملك الدانى جوثرورم بأن يتم تعميده ويعتنق المسيحية^(٣١).

ولم يمض على توقيع هذه المعاهدة سوى عدة أسابيع حتى توجه الملك جوثرورم مع ثلاثين من كبار حاشيته إلى منطقة ويدمور Wedmore، حيث استقبلهم الملك ألفرد بالترحاب وتم تعميدهم. واعتناقهم المسيحية، وتشير وثائق الاتجلوسكسون إلى أنه بعد تعميدهم الدانيين بثمانية أيام ارتدوا الملابس البيضاء، بينما ظل الملك جوثرورم فى ضياق الملك ألفرد اثنتا عشر يوما اتحفه خلالها بالعديد من الهدايا^(٣٢)، ثم غادر الدانيون بعدها مملكة وسكس واتجهوا إلى اجليا الشرقية^(٣٣).

ولم تشر المصادر إلى قيام الملك جوثرورم بمشاركة الدانيين فى هجماتهم على الممالك الإنجليزية بعد التوقيع على معاهدة عام ٨٧٨م معا يستبصر اتجازا كبيرا للملك ألفرد.

وتشير المصادر إلى أن الملك جوثرورم عاد فعقد معاهدة شاملة مع الملك السكسونى ألفرد عام ٨٨٦م^(٣٤) دون أن توضح الأسباب التى دعت

The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol.I, P. 180; (٣١)

Roger de Hoveden, Op.Cit., Vol. I, P. 50;

Matthew of Westminster, Op.Cit., Vol. I, PP. 429-432.

The Anglo Saxon Chronicle, Ibid. (٣٢)

Matthew of Westminster, Op.Cit., Vol.I, P. 433. (٣٣)

The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 182; (٣٤)

The Treaty between Alfred and Guthrum 886, cf. E. H.D.P. 380.

الجانبيين إلى توقيع هذه المعاهدة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بتطور الصراع بين
الأتجلو سكسون والدانيين في الفترة الممتدة بين عامي ٨٧٨ - ٨٨٦م.

وأهم ما نلاحظه خلال هذه الفترة هو توافد الحشود الدانية على إنجلترا
على هيئة جماعات كبيرة قامت بمهاجمة بعض المناطق في مملكة كنت
ووسكس (٣٥).

ومما يسترعى الإنتباه أيضا أن الهجمات الدانية على الامبراطورية
الكارولنجية خلال هذه الفترة قد زادت وإشتدت. إذ غادرت جماعات كبيرة
من الدانيين إنجلترا، وأبحرت جنوبا إلى سواحل وانهار الامبراطورية
الكارولنجية (٣٦)، وظلت تمارس أعمال السلب والنهب والتدمير في كثير من
المناطق والمدن والأديرة الفرنجية (٣٧).

ونلاحظ أيضا أن الملك ألفرد لم يتصد للهجمات الدانية في مملكة وسكس
فحسب وإنما ظل يطاردهم خارج مملكته، واصبح مسئولاً عن الدفاع عن
سائر الممالك الأتجلوسكسونية ضد الهجمات الدانية (٣٨).

وعلى هذا يمكن أن نستشف الأسباب التي أدت إلى عقد المعاهدة بين
الملك ألفرد والملك جوثروم سنة ٨٨٦م ونوجزها فيما يلي:

Matthew of westminster, Op.Cit., Vol. I, P. 440.

The Anglo Saxon Chronicle Op.Cit., Vol. I, PP. 180-82; (٣٥)

Roger de Hoveden, Op.Cit., Vol. I, PP. 50-51;

Mathew of Westminster, Op.Cit., Vol. I, PP. 836-440.

(٣٦) عن هذه الهجمات أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, PP. 181-182; (٣٧)

Roger de Hoveden, Op.Cit., Vol.I, PP. 5051;

Matthew of Westminster, Op.Cit., Vol. I, PP. 433-439.

Cantor, N.F., The Medieval history, New York, 1964, P. 325. (٣٨)

أولاً: أن ألفرد نظر إلى الملك الداني جوثروم بعد اعتناقه المسيحية على أنه يمثل الدانيين الذين استقروا في مملكتي انجليا الشرقية ونورثميريا وأعتق فريق منهم المسيحية، وأصبحوا يتعايشون مع الشعب الاتجليزي في المملكتين دون قواعد أو أسس تحكم العلاقة بين الجانبين فكان لابد من وضع إطار لتنظيم هذا الوضع الجديد.

ثانياً: أن الملك ألفرد بحكم مسؤوليته عن سائر الممالك في الجزيرة رأى أنه من الضروري توفير الأمن والأمان للشعب في كل الممالك من الهجمات الدانية بعقدها معاهدة سلام شاملة بين الجانبين لا سيما وأن المعاهدة السابقة التي عقدت في عام ٨٧٨م كانت قاصرة على كف يد الدانيين الذين استقروا وسط إنجلترا عن ممالك الاتجليز بصفة خاصة في تلك المناطق، بينما لم يلتزم بها الوافدين حديثاً إلى إنجلترا من الدانيين.

ثالثاً: ما وضح من استمرار روح المغامرة وإشباع الرغبة في السلب والنهب عند الدانيين على الرغم من توقيعهم معاهدة عام ٨٧٨م وإعتناق جوثروم وبعض أتباعه المسيحية، فلا زالت جماعات منهم يتمسكون بوثنيتهم، ويشاركون الوافدين الجدد أعمال السلب والنهب والتدمير.

رابعاً: لم تشر معاهدة ٨٧٨م إلى حدود مناطق النفوذ لكل من الملك الداني جوثروم والملك ألفرد.

لكل هذه الأسباب رأى كل من الملك ألفرد والملك جوثروم عقد معاهدة سلام شاملة بين الجانبين، فتم لهما ذلك في عام ٨٨٦م.

أما عن شروط المعاهدة التي وافق عليها الجانبان فقد انقسمت إلى خمسة بنود يمكن أن نوجزها فيما يلي:

يرسم البند الأول الحدود التي تفصل مناطق النفوذ بين الجانبين، بخط يمتد بطول نهري التميز ولى Lea حتى مدينة بيدفورد Bedford ومنها إلى طريق، ولتتج Walting Street.

ويهتم البند الثاني بمسألة الفدية. إذ يشير إلى أنه إذا لقي أحد الدائنين أو الانجليز (أحرار المولد) للصرعه تكون فديته عند قتله بمقدار ثمانية ونصف مارك من الذهب الخالص أما فدية الرجل الأجير في الأراضي الزراعية سواء كان من الانجليز أو الدائنين مائتي شلن^(٢٩).

أما البند الثالث فيتعلق بالتقاضى فى المحاكم، ويشير إلى أنه إذا وجه أحد الأفراد التهمة بالقتل أو السرقة لشخص من الطبقة العليا التي يمثلها نواب الملك فعليه أن يقسم اليمين أمام اثني عشر نائبا ملكيا، أما إذا وجه أحد الأفراد التهمة بالقتل أو السرفه لشخص ينتمى إلى الطبقة الأدنى فعليه أداء اليمين أمام أحد عشر رجلا من الطبقة التي ينتمى إليها بالإضافة إلى أحد نواب الملك. وإذا عجز كل من واجه تهمة القتل عن تقديم الدلائل التي تثبت براءته فعليه أن يدفع غرامة تماثل ثلاثة أضعاف الفدية أو الشئ المسروق.

أما البند الرابع فيختص بالمعاملات التجارية بين الجانبين فيما يتعلق ببيع وشراء العبيد والخيول.

(٢٩) لابد وأن هذه العملة هي التي تداولها الطرفان فى تلك الفترة وارتضيا التعامل معها.

ويهتم البند الخامس بكييفية انتقال الأفراد من وإلى مناطق نفوذ الجا
ويحرم عبور الأفراد مناطق الحدود الفاصلة بين الجانبين الا بتصريح خ
لا يمنح إلا للتجار الراغبين في المتاجرة في السلع والماشية بعد أن
هؤلاء التجار الضمانات الكافية من رهائن للالتزام بعدم قيامهم بأعمال أ
غير المتاجرة^(٤٠).

وإذا اخضعنا هذه المعاهدة للدراسة والتحليل وجدنا أنها تؤكد اعتر
الانجليز بسياسة الأمر الواقع للوجود الداني في المناطق التي استقروا
مما يعتبر تطوراً هاماً في العلاقات بين الانجليز والدانين في هذه الفترة.

كما أن بنود هذه المعاهدة تدل على أن الجانبين كان يمثلان قو
متساويتين في المكانة والنفوذ، ويؤكد البند الأول هذه الدلالة إذ جعل مد
لندن والجزء الأكبر من مرسيا بالإضافة إلى وسكس تحت نفوذ الملك ألف
بينما كانت الأجزاء الباقية من مرسيا فضلاً عن انجليا الشرقية ونوثميد
ضمن نفوذ الدانين.

ويساير البند الثاني النزعة الطبقيّة التي كانت سائدة في الغرب الأورو
في العصور الوسطى، والتي تقسم المجتمع إلى طبقات ويؤكد هذا إختلا
قيمة الفدية للفرد الذي ينتمى لأحدى الطبقتين، كما يشير إليها البند الثا
الخاص بالتقاضي.

أما عن البندين الرابع والخامس فقد اهتمتا بتتظيم المتاجرة بين الجانبين
فضلاً عن منع هجرة الأفراد سواء كانوا من الدانين أو الانجليز إلى مناط
الحدود الأخرى إلا بشروط خاصة.

(٤٠) he Treaty between Alfred and Guthrum (886), Op.Cit., 380 - 381.

فى ضوء هذا التحليل يتضح لنا أن المعاهدة فى مجملها-مثلها فى ذلك مثل المعاهدات سالفة الذكر - تعود بالفائدة على الدانين بصورة كبيرة وتراعى مصالح الدانين أكثر من مراعاتها لمصالح الطرف الآخر وهو أمر طبيعى ما دام الدانيون لا زالوا متحفزين للهجوم والضغط على أصحاب البلاد.

أما عن نتائج هذه المعاهدة فيجب الإشارة إلى أنها تشير ولو من طرف خفى إلى بدايات امتزاج بين الدانين وسكان الجزيرة البريطانية، وان لم تحقق الأمن والأمان للشعب فى الجزيرة البريطانية، من خطر الدانين أو تحد من رغبتهم الجامعة فى الاستيطان داخل الجزيرة، أو تمنع الهجمات الدائنة وما يصاحبها من سلب ونهب وتدمير. إذ عادت المدن الانجليزية ولا سيما مدينة لندن تتعرض للخطر الدانى عام ٨٩٤م^(٤١).

وفى ضوء ما سبق يتضح أن الانجليز عقدوا كثيرا من المعاهدات مع الدانين خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، وأن هذه المعاهدات لم تؤد إلى وقف الغزو الدانى للجزيرة البريطانية والاستقرار بها، وان عظم ما نتج عنها هو اعناق أعداد من الدانين للديانة المسيحية، وبداية الامتزاج بين الشعبين الدانى والانجليزى.

(٤١) The Anglo Saxon Chronicle, Op.Cit., Vol. I, P. 185; Roger de Hovden, Op.Cit., Vol. I, P. 58; Matthew of Westminster Op.Cit., P.449.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأصلية:

Anglo Saxon Chronicle, cf. English historical Documents
[E.H.D], London, 1968, PP. 135 - 235.

Asccr, The life of king Alfred, ed. by W.H. Stevenson,
Oxford, 1904.

Letter of Pope John VIII to Ethelard archbishop of
Cantrbury, cf. E.H.D., P. 811.

Matthew of Westminster, The Flowers of history, 2 vol,
London, 1853.

Memorials of St. Edmund's Abley, ed. by M.T. Arnold, 2
vols, London, 1882.

Roger de Hoveden, Annals, 2 vols, London, 1853.

Roger of Wendover, Flores Historiarum, cf. E.H.D., PP. 255-
258.

Syman's Monashi opera, ed. by M.T. Arnold, 3 vols, London,
1882.

The Treaty between Alfred and Guthrum (886), cf. E.H.D.,
PP. 380-381.

Whitlock, D., Saga book of the viking society, London,
1954.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

Cantor, N.F., The Medieval history, New York, 1964.

Haskins, H., The Normans is European history, New York,
1959.

Koengsberger, H.G., Medieval Europe (400-1500), New
York, 1987.

Morris, B, The Middle Ages, New York, 1983.

Rayner, R.M, Aconsise history of Britain, London, 1939.

Trevelyan, G.M., History of England, Oxford, 1987.

Whitelock, D., The Beginning of the England Society,
London, 1954.

ثالثاً: المراجع العربية:

السيد الباز العرينى (دكتور):

"تاريخ أوروبا في العصور الوسطى"، بيروت ١٩٦٨م.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

"تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور الوسطى، الاسكندرية ١٩٨٧م.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

"أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسى، ط ٤، القاهرة ١٩٦٦).

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):

"تاريخ أوروبا في العصور الوسطى"، الاسكندرية ١٩٩٠.

الفصل السابع

ملاحم العزو و الداني لانجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي
في ضوء الوثائق الانجليزية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدانيون هم فرع من الفيكنج، او الشماليين الذين كانوا يقطنون شبه جزيرة اسكنديناوه، وحوض البحر البلطي (١). وقد اطلق أهل إنجلترا من الأنجلو سكسون اسم الدانيين على جماعات الفيكنج الذين هاجموا بلادهم في أواخر القرن الثامن الميلادي (٢).

وكانت الحاجة إلى الغذاء والكساء، والبحث عن طرق جديدة في الحياة، والنزوع إلى التجارة، فضلاً عن التغييرات السياسية التي طرأت على مجتمع الفيكنج، من أهم العوامل التي دفعت الفيكنج إلى الخروج من عزلتهم، وإغارتهم على الجزيرة البريطانية في الفترة منذ أواخر القرن الثامن حتى منتصف القرن التاسع الميلادي (٣) فضلاً عما كانوا يهدفون إليه من السلب والنهب (٤).

ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي تقريباً تميزت هجمات الدانيين بسمه جديدة. إذ انتقلت هجماتهم من طور السلب والنهب، والهجوم الخاطف

(١) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٨٧م، ص ١٤١.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى «التاريخ السياسي»، ط ٤، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢٣٢.

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٤) السيد الباز العريني: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت ١٩٦٨م، ص ٣٥٥، وايضاً:

Koenigsberger, H.G., Medieval Europe (400 - 1500), New York, 1987, p. 96; Morris, B., The Middle Ages, New York, 1983, P. 58.

والعودة السريعه، إلى دور الاستقرار(١).

وإذا أمعنا النظر في الوثائق الأجليزية التي اهتمت بتاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور الوسطى، وعينت بسرد احداث الغزو الداني لانجلترا خلال مراحلته المختلفة، نجد أن الفترة التي هدف فيها الدانيون إلى الاستقرار كانت لها ملامح عديدة.

وقبل أن نعرض هذه الملامح، من الأهمية بمكان الإشارة إلى العوامل التي ساعدت الدانيين على الانتقال من مرحله السلب والنهب والهجوم الخاطف إلى مرحله الاستقرار، والتي لم تشر إليها الوثائق البريطانية صراحة، وإنما وردت في ثنايا الاحداث التي أشارت إليها هذه الوثائق.

إذ يمثل ضعف المقاومة الإنجليزية للهجمات الدانية أهم هذه العوامل. فقد كانت جزيرة إنجلترا وقتذاك مفككة مجزأة إلى عدة ممالك متصارعة(٢)، لم تكن تجمعها نظم دفاعية أو تنسيق لمواجهة الخطر الداني. فضلاً عن المنازعات الداخلية التي كانت تنخر في عظام بعض هذه الممالك، وتسهم في مزيد من الانقسام، وتجعلها تتساقط الواحدة تلو الأخرى أمام هجمات الدانيين(٣).

وكان لطول السواحل الإنجليزية، وكثرة الأنهار التي تجري داخل الجزيرة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٢) The Anglo Saxon Chronicle, cf. E.H. D.ed. D.C. Douglas, London, 1968, Vol. I, pp.166 - 167; Also; White-lock, D., The Beginning of the English Society, London, 1954, p.49.

(٣) Roger de Hoveden, The Annals, 2 Vols, London, 1853, Vol. I, pp.44 - 49, 160.

وتخترقها في أكثر من جهة، أكبر الأثر في صعوبة الدفاع عنها من جهة،
ومن جهة أخرى منحت الدانين الحزبه التامه لإرساء سفنهم علي هذه
السواحل؛ أو اختراق عباب الأنهار إلي الداخل دون مقاومة كبيره(١).

كما أن التفوق البحري كان آنذاك لصالح الدانين. اذ قست الطبيعة
علي بلادهم، وجعلتهم يقطنون مناطق تكتنفها الغابات والجبال والأحراش،
وتسودها المستنقعات والخلجان، مما دفعهم لارتداد البحر، فاکتسبوا المهارة في
فنون الملاحة وصنع السفن(٢)، وفي الوقت نفسه افتقرت الممالك الانجليزية
لوجود أساطيل تستطيع التصدي للسفن الدانیه(٣).

كما امتازت الهجمات الدانیه في دورها الأول بأنها كانت سريعة
وخاطفه، فضلا عن أن تحركاتهم كانت تتم تحت جنح الظلام. مما أدی إلي
صعوبه التصدي لهم(٤).

يضاف إلى هذه العوامل أن الحشود الدانیه كانت تأتي في إثر بعضها

(١) The Anglo Saxn Chronicle, Cf. E.H. D., P. 166.

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٣) لم يظن اهل انجلترا الى ضرورة صنع السفن الحربية لمواجهة الهجمات الدانیه
الا في عهد الملك الانجليزي ألفرد Alfred (٨٧١م - ٨٩٩م) الذى شرع فى
بناء السفن والتصدي لهم.. انظر : Mathew of Westminster, the
Flowers of History, 2 Vols, London, 1853, Vol. I, pp.
.428 - 429.

(٤) Roger de Hoveden, op. cit., Vol. I, pp. 49,55; The Anglo
Saxon Chronica, if . E.H.D., Vol. I, P.173

من الدانمرك إلى الجزيرة البريطانية(١) ، مما جعل الإمدادات الدانية مستمرة،
وشجع الدانيين على الاستقرار داخل الجزيرة البريطانية.

هذا عن العوامل التي ساعدت الدانيين على الانتقال من مرحلة السلب
والنهب وأعمال القرصنة والهجوم الخاطف والعودة، إلى مرحلة الاستقرار
داخل الجزيرة. أما عن ملامح الغزو الداني لهذه الجزيرة في النصف الثاني من
القرن التاسع الميلادي فيمكن تقسيمها إلى ملامح عامه، وأخرى تتعلق
بتحركات الدانيين، أو أساليبهم العسكرية سواء كانت هجومية أو دفاعية.

لعل أول ما نستطيع إيضاحه في هذا المقام هو أن الهجمات الدانية
خلال هذه المرحلة ظلت تتسم بالعنف والقسوة، وبأعمال السلب والنهب
والتدمير(٢). ولم تسلم الأديرة الإنجليزية من هذه الهجمات الشرسة(٣).
وربما يرجع ذلك إلى أن الدانيين ظلوا على وثنيتهم(٤) حتى اعتناق ملكهم
جوثرورم Guthrum(٥) المسيحية عام ٨٧٨م(٦). بيد أن أعمال العنف
والسلب والنهب استمرت حتى نهاية القرن التاسع الميلادي، وإن كانت

(١) Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p.43; Annals of St. Bertins, cf. E.H.D., pp. 314 - 315

Asser, The life of King Alfred, ed. by W.H. Stevenson, (٢)
Oxford, 1904, p.69.

The Anglo Saxon chronicle op. cit vol 1; p. 180 ; Roger(٣)
de Hoveden op cit, vol., pp. 49 - 50.

Trevalyan, G. M., History of England, London, 1924, p.(٤)
69.

(٥) يطلق عليه متى من وستمستر اسم جيترو Gytró انظر

Matthew of Westminster op. cit, vol. I, p.429.

The Anglo Saxon Chronicle op.cit, vol. I, p.180. (٦)

محدوداً واخف وطأه من الهجمات التي تمت قبل عام ٨٧٨م (١).

ومن الأهمية بمكان الاشارة إلي أن الوثائق الانجليزية ظلت تطلق مصطلح الوثنيين على الدانين حتي بعد عام ٨٧٨م (٢). ومن هنا يمكن القول: أن الدانين عامه لم يتأثروا كثيراً باعتناق جوثروم المسيحية عام ٨٧٨م، وإنما ظلت جماعات كبيرة منهم على وثنتهم، ولا سيما الجماعات التي كانت تتواجد علي الجزيرة الانجليزية من الدانمرك بعد عام ٨٧٨م.

ويلاحظ أن الوثائق الانجليزية إلي جانب وصفها للدانين بأنهم وثنيين ، فقد اطلقت عليهم مسميات عديدة: منها القراصنة، والذئاب والثعالب (٣)، والغلاظ قساة القلوب (٤). ولكن مما يلفت الانتباه ان وثائق الانجلوسكون تطلق اسم «الفيكنج» فقط عل الجماعات التي هاجمت انجليا الشرقية عامي ٨٧٩م ، ٨٨٥م (٥). واسم «الدانين» على الجماعات التي كانت قد استقرت في تلك المنطقة من قبل، وشاركت الفيكنج في الهجوم. ولا نجد تفسيراً لهذا الامر سوي أن وثائق الانجلوسكون ارادت ان تميز الجماعات الوافده حديثاً إلي المنطقه عن الجماعات التي كانت قد استقرت بها من قبل، فاطلقت على الأولي اسم الفيكنج، والثانيه اسم الدانين.

(١) Roger de Hoveden op. cit., vol. I, p. 58.

(٢) Roger de Hoveden op cit., vol. I, pp. 50 - 58; Matthew of westminster, op. cit., vol I, pp. 433 - 437.

(٣) Roger de Hoveden op. cit., Vol. I, pp. 47, 49.

(٤) Letter of pope John VIII to Ethelred archbishop of Canterbury, of . E. H. D., Vol. I, p. 811.

(٥) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, pp. 180, 182.

ومن الملامح العامه للغزو الداني لانيجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، أن الهجمات الدانيه منذ عام ٨٥١ م وحتى عام ٨٦٦ م كانت تقوم بها جماعات متفرقه لم تجمعها قياده موحد، أو يكون لها خطه محدد. وكانت الاشاره الاولي لوصول حشد كبير من الدانيين في عام ٨٦٦ م عندما هاجموا انجليا الشرقيه، ويقودهم ابناء الملك رجنار لوثيروك Rgnar Lothbrak الذين أشارت اليهم الوثائق بأنهم كانوا أيضا في مكانه الملوك (١). كل هذه الأمور تجعلنا نعتقد أن الهجمات الدانيه منذ عام ٨٥١ م وحتى عام ٨٧٠ م كانت تحت قياده بعض الزعماء، ثم أصبحت تحت قياده الملوك بدياه من عام ٨٧٠ م .

ودأب الدانيون علي الرحيل من بلادهم بصحبة نسائهم وأطفالهم تربطهم وحده اللغة، والعادات والتقاليد والعقيده الوثنيه، ويسحرون في الصيف (٢) حيث الظروف المناخيه الملائمه، تجاه انجلترا، ويستقرون في مناطق داخل الجزيره لحين انتهاء الشتاء في داخل معسكرات حصينه (٣)، ثم تبدأ هجماتهم في أوائل شهر نوفمبر (٤).

والمناطق الأولى التي استقرت بها الجماعات الدانيه منذ سنة ٨٥١ م كانت داخل جزيرتين صغيرتين علي الساحل الجنوبي الشرقي لانيجلترا، وهما

(١) تشير وثائق الانجلو سكمون إلى اثنين من هؤلاء الملوك وهما : هالفدن -Healf-dene وباسك Bagsecg انظر :

The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., Vol. pp. 176 - 177, Arnold., M.T., Memorials of St. Edmunds Abbey, 2 vol., London, 1882, Vol. I., p.9.

The Anglo Saxon chronicle, op.cit., vol. I, p. 177. (٢)

Roger de Hoveden op. cit., vol. I, p 42. (٣)

Arnald, M.T., Symeons Monachi Opera, 3 vols, Lon- (٤)
don, 1882, vol. III., p. 106.

ثانت Thanet وشيبي Sheppey (١) . اذ قضى بهما الدانيون الشتاء، ثم أبحروا منهما لمهاجمة الجزيرة الانجليزية (٢) .

وتعتبر منطقته دوفر على الساحل الجنوبي الشرقي لانجلترا من أولي المناطق التي تعرضت للهجمات الدانية في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي . اذ هاجمها الدانيون في أواخر عام ٨٥١م، فتصدى لهم أهل دوفر بقيادة الايرل شارل Chearl ، ونجحوا في إرغامهم على الفرار (٣) .

وفي العام نفسه أبحرت ثلاثمائة وخمسون سفينة للدانيين، واستقرت عند مصب نهر التيميز (٤) وهاجمت مدينتي كانتربري Canterbury ولندن (٥)، فواجهتهم قوات مملكه مرسيا بقيادة الملك برتولف Brihtwulf ، ودارت رحى معركة عنيفة بين الجانبين انتهت بانسحاب الدانيين (٦) .

وعلى الرغم من انكسار شوكة الدانيين في المعركتين السابقتين، والمقاومه العنيفة التي واجهتهم (٧)، الا أن الرغبة الجامحة للاستيطان في داخل جزيرة انجلترا جعلتهم يواصلون الهجمات دون ان يخلدوا للراحه. اذ تشير الوثائق الانجليزية إلى أنه في العام نفسه ٨٥١م دارت المعركة بين الدانيين وقوات مملكه وسكس بقياده الملك اثلوروف Ethelwulf وابنه

The Anglo Saxon chronicle, op.cit., vol. I, p. 173. (١)

Haskins, H., The Normans in European history New York. 1959, p. 33. (٢)

Roger de Hovden. Ibid. (٣)

Roger de Hoveden op. cit. vol. I, p. 41. (٤)

The Anglo Saxon Chronicle op. cit., vol. I, p. 173. (٥)

Matthew of westminster, op. cit, vol.I, P. 399. (٦)

Oman, C., The Dark Ages (476 - 918), London, 1962, (٧) p. 415.

إثيلبالد Ethelbald عند اكلا Aclea (١) وانتهت أيضا بهزيمة الدانيين (٢).

كما لحقت بالدانيين هزيمة أخرى في العام نفسه عندما هاجمت مجموعة منهم مملكة كنت في الساحل الجنوبي الشرقي لاجلثرا، فتصدت لهم قوات كنت بقيادة الملك اثلستان Athelstan، وتمكنت من اسر تسع سفن للدانيين، وإرغام الباقي على الفرار (٣).

وقد أغرى هذا الانتصار أهل كنت للبحار في اواخر عام ٨٥٣م، لمهاجمة الدانيين في جزيرة ثانت (٤) في أوائل عام ٨٥٤م. وتشير وثائق الأنجلوسكسون إلى أن النصر كان في بداية المعركة حليف الانجليز، ولكن سرعان ما دارت الدائرة عليهم، وتحول سير المعركة لصالح الدانيين، وسقط العديد من القتلى من أهل كنت (٥).

ولم تكبح هذه المعارك جماح الدانيين، وإنما أدت إلى مزيد من هجماتهم بعدما عدلوا في أسلوبهم المميز في مواجهه المقاومة الانجليزية. إذ أصبحت هجماتهم تعتمد على المفاجأة، بعد أن ترسو سفنهم في مناطق بعيدة عند مصبات الأنهار، وعند نزولهم الى اليابسه، يقبموا معسكراتهم في مناطق حصينة بالقرب من الانهار الصالحة للملاحة (٦)، أو بالقرب من النباتات او

(١) تعرف أيضا باسم اوكللي Ockley، انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ٢٣٣، أيضا: Roger de Hovden, Ibid.

(٢) The Anglo saxon chronicle, op. cit pp. 173 - 174.

(٣) The Anglo Saxon Chronicle op. cit., vol. I, p. 173.

(٤) Roger de Hovden, op. cit., vol. I, p. 42.

(٥) The Anglo saxon chronicle, op. cit., Vol. I, p. 174.

(٦) Stenton, F. M., Anglo - Saxon England, Oxford, 1947, P. 244.

المستنقعات، ويتركزون سفنهم مصطفاة على جانب النهر، وعلى أهبه الأستعداد للرحيل السريع (١).

واعتمدوا على الخيول فى تحركاتهم البريه، ولهذا اهتموا بجمع اعداد كبيره منها (٢) لاستخدامها فى الهجمات الخاطفه من جهه، ولمواجهه الفرسان الانجليز من جهه أخرى، بالاضافه إلى حمل الأسلاب والغنائم.

ولسد الحاجه إلى الغذاء شرعوا فى مهاجمه المناطق الزراعيه الانجليزيه فى وقت الخصاد (٣)، واستغلوا انشغال المزارعين بجنى المحاصيل، وعجزهم عن التصدى لهجماتهم السريعه.

وشرع الدانيون فى تنفيذ هذا الأسلوب العسكرى. اذ هاجموا فى عام ٨٦٠م مملكة كنت، ونجحوا فى إلحاق الدمار بمدينة ونشستر Winchester، وعادوا إلى سفنهم محملين بالاسلاب والغنائم (٤).

واستمرت الهجمات الدانيه على كنت (٥)، مما دفع اهلها إلى عقد معاهده سلام مع الدانيين (٦)، تعهد فيها أهل كنت بدفع الأموال لهم

(١) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., Vol. I, pp. 176 - 186.

(٢) Róger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 43.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, op. cit., vol. I, p. 188.

(٤) The Anglo Saxon chronicle, op. cit., 175; Roger de Hoveden, op. cit., p. 43.

(٥) Matthew of Westminster, op. cit., vol. I, p. 406.

(٦) عن تاريخ هذه المعاهده انظر بحثنا المعنون «دراسة لمعاهدات السلام بين الانجليز والدانيين فى النصف الثان من القرن التاسع الميلادى».

مقابل وقف هجماتهم على المنطقة . ورغم توقيع الدانين على هذه المعاهدة، إلا أنهم لم يلتزموا ببنودها، واستمرت هجماتهم على الساحل الشرقي لكنت(١).

وتشير الوثائق الانجليزية إلى أنه في عام ٨٦٦م أبحرت حشود كبيرة من الدانمرك على ظهر سفنهم، ورس في انجلترا الشرقية، وقضوا الشتاء بها ، واتباعا للاسلوب العسكري الداني وقتذاك ، فانهم نجحوا في الحصول على اعداد كبيرة من الخيول في مملكة انجلترا الشرقية(٢) ، واخذ خطرهم يستفحل يوما بعد آخر،(٣) بعدما تحول المشاه إلى فرسان(٤).

وبدأ الدانيون في تنفيذ سياستهم الاستيطانية في خريف عام ٨٦٦م عندما تحركت حشود دانية كبيرة من انجلترا الشرقية إلى نورثمبريا التي كان يسودها حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار . اذ قام أهلها بعزل ملكهم اوسبرت Osbert ، واختاروا ملك لم يكن له حق شرعي يدعى ايللا Ella فاستغل الدانيون هذه التطورات، واقتحموا مدينة يورك York في أول نوفمبر عام ٨٦٧م(٥) ، ونجحوا في السيطرة عليها، وهزيمه المدافعين عنها، وتمكنوا في ٢١ مارس من العام نفسه من قتل كل من اوسبرت وايللا(٦) ، وإرغام اهل نورثمبريا على شراء السلم منهم بالاموال(٧).

The Anglo Saxon chronicle, op. cit, vol. I,p 176; (١)

Roger de Hoveden, Ibid;

Mathew of Westminster, op. cit., vol. ٢, p.407.

The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p.176 (٢)

Haskins, op. cit., p.33.

Mathew ok Westminster, op. cit., Vol. I, p.407 (٤)

Roger de Hoveden, op,cit, Vol. I, p.44. (٥)

Arnold, op. cit, vol. III. p. 106; (٦)

Page of wendover. Flores Historisum, of E.H.D., (٧)
p256.

The Anglo Saxon, Ibid.

ولم يكتف الدانيون بخضوع أهل نورثمبريا، وإنما سعوا إلى مزيد من التسلط، فقاموا بتعيين إيجبرت Egbert ليصبح ملكا على نورثمبريا، وليكون من صنائعهم لمدة ست سنوات (١). ويمثل هذا الأمر تطوراً خطيراً في العلاقات بين الانجليز والدانيين في هذه المرحلة. إذ لم يكتف الدانيون بالسيطرة على المناطق الانجليزية فحسب، وإنما غمסوا إصبعهم في النواحي السياسية في المناطق التي قاموا بغزوها. وأصبح هذا العمل حجر الزاوية في السياسة الدانية في المناطق الانجليزية التي استقروا بها.

واستمر الدانيون في تنفيذ سياستهم الاستيطانية في الجزيرة الانجليزية، وفي خريف عام ٨٦٧م غادروا نورثمبريا، واتجهوا إلى مملكة مرسيا، حيث قضوا الشتاء في نوتنجهام Nottingham، مما أثار فزع بورجارد Burgard ملك مرسيا، فأسرع هذا بطلب العون والمساعدة من إثلرد Ethelard ملك وسكس (٢)، اعتماداً على رباط المصاهرة بينهما (٣)، فخرج إثلرد بجيشه وبصحبة أخوه ألفرد Alfred، وتوجهها إلى مرسيا حيث انضمت قوات المملكتين استعداداً لملاقاة الدانيين.

وبعد التعاون العسكري المشترك بين مملكتي مرسيا وسكس أول تنسيق دفاعي انجليزي ضد الدانيين في تلك المرحلة. وإن لم تنجح قوات المملكتين في إلحاق الهزائم بالدانيين (٤) وقتذاك، مما دفع بورجارد ملك مرسيا إلى شراء السلم من الدانيين بدفع الاموال (٥).

(١) Roger of Wendover, op. cit; p.256.

(٢) The Anglo saxon chronicle, op. cit., vol. I, p. 176.

(٣) كان بورجارد قد تزوج من اخت إثلرد. انظر:

Stenton, op. cit.,p.245

(٤) The Anglo Saxon Chronicle op. cit., Vol. I, p. 170

(٥) Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p.44;

Matthew of Westminster, op. cit., Vol. I, p.409

وفي ضوء ما سبق يمكن القول ان كنهه الدانين في هذا الصراع كانت هي الراجحه. وأخطر ما ترتب على ذلك ، أن تشجع الدانين لاستكمال سياستهم الاستيطانيه داخل الجزيره البريطانيه. فعادوا في عام ٨٦٩م إلى مملكه نورثمبريا وظلوا بها لمدة عام(١) ، وزادت شراستهم ، فقاموا بقتل كثير من الاطفال والنساء والشيوخ في مدينه يورك(٢).

وفي عام ٨٧٠ احتشد عدة الآف من الدانين(٣) بقيادة اثنين من الملوك الدانين هما انجوار Inguar واخيه هويا Hubba(٤) وتوجهوا إلى مملكه انجليا الشرقيه ، وأمضوا الشتاء في نورفولك Norfouk(٥) فخرجت إليهم القوات الانجليزيه بقيادة الملك إدموند Edmund ، ودارت رحى المعركه بين الطرفين ، وانتهت بهزيمة قوات انجليا(٦) ومقتل الملك ادموند(٧) ، وكان من نتائج هذه المعركه ان دانت مملكه انجليا الشرقيه للدانين بالطاعه ، واستحوذ الدانيون على غالبية الاراضي الزراعيه في المملكه ، وقاموا بسلب ونهب كافة الادييره في المنطقه ، وقتل الرهبان بداخلها(٨).

وتشير الوثائق الانجليزيه إلى ان انجوار ملك الدانين في الجزيره

-
- | | |
|---|-----|
| The Anglo Saxon Chronicle, Ibid | (١) |
| Roger de Hoveden, op. cit, vol. I, p. 45; | (٢) |
| Matthew of Westminster, Ibid. | |
| Roger Hoveden, Ibid. | (٣) |
| Matthew of Westmenoter, op. cit., vol. I, p. 4ll. | (٤) |
| Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 45. | (٥) |
| The Anglo Saxon Chronicle, op. cit, Vol. I, p.177 | (٦) |
| Whitelock, D., The Saga book of the viking Society, London, 1954, p. 164. | (٧) |
| The Anglo Saxon Chronicle, Ibid. | (٨) |

الانجليزية قد لقي حتفه في عام ٨٧٠، وانتقلت قياده الدانيين بعد موته إلى ابنه الملك هالفدن(١).

استمرت كفه الدانيين هي الراجحة حتى عام ٨٧١م وكانت الحشود الدانية قد تحركت من انجلترا الشرقية واتجهت إلى مملكة السكسون الغربيين في وسكس، واستقروا أمام المدينة الملكية المعروفة باسم ريدنج Reading(٢) والتي تقع عند الضفة الجنوبيه لنهر التيميز في منطقه بيركشيرBerkshire (٣). وفي اليوم الثالث من وصولهم(٤)، قام جماعه من الدانيين بأعمال السلب والنهب، بينما حاولت جماعه أخرى اجتياز الحواجز التي أقامها الانجليز عند الجانب الايمن لمدينه ريدنج في المنطقه التي يلتقى عندها نهري التيميز وكينت. ولما سمع إثيلودف Ethelwulf إيرل بيركشير أنباء هذه التحركات الدانية، أسرع يجمع قواته، وخرج للتبصدي لهم. والتقى بهم في المنطقه المعروفة باسم انجلفيلد Engle field (ساحه الانجليز)، ونجح في إلحاق الهزيمة بهم، وإرغامهم على الفرار(٥).

وبعد مرور أربعة ايام على معركة انجلفيلد، قام إثلرد - ملك وسكس - وأخوه الفرد بحشد قوات السكسون الغربيين، وهاجموا معسكر الدانيين

-
- (١) Roger of Wendover, of cit., p. 256;
The Anglo Saxon Chronicle, Ibid,
Matthew of Westminster, op. cit, Vol. I, p.
The Anglo Saxon Chronicle, op. cit, vol. I, p 177. (٢)
Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 45. (٣)
(٤) لم تحدد الوثائق الانجليزية تاريخ وصول الدانيين إلى مملكة وسكس، وانما اكتفت
بالإشارة الى ان هذه احداث جرت في عام ٨٧١م.
The Anglo Saxon chronicle Ibid, (٥)
Roger de Hoveden Ibid;
Matthew of Westminster, op. cit, vol. I, pp.420 - 421.

بالقرب من مدينة ريدينج، وانتهت المعركة بين الجانبين بانتصار الدانيين، ومقتل اثيلورف ايرل بركشير. (١)

وهكذا تأرجح النصر بين الدانيين والسكسون الغربيين، في معركة ايجلفيلد وريدينج، مما جعل كل منهما ينظم صفوفه، ويستعد لحسم الامر لصالحه. إذ قسم الدانيون قواتهم الى قسمين: الاول بقيادة الملوك أبناء رجنار لوثيروك، والقسم الثاني بقيادة كبار القادة الدانيين (٢). وسار السكسون الغربيين على هذا المنهج، وقسموا قواتهم الى قسمين الاول بقيادة الملك اثلرد والثاني بقيادة اخيه الفرد. والتقى الجمعان عند إشيديون Eschidon وفي بدايه المعركة، جرى الاشتباك بين القسم الذي تولى قيادته الفرد، والقسم الداني بقيادة كبار القادة. ونجح الفرد في إلحاق الهزيمة بهذا القسم وقتل خمسا من قادته هم سيدروك Sidroc الكبير، وسيدروك الصغير، واوسبيرن Osbearn، وفرانا Freana، وهارولد Harold. أما عن الملك اثلرد، فكان يسمع القداس في خيمته، وأبى ان يشارك في المعركة الا بعد انفراغ من سماعه. وقد نجح هو الآخر في تحقيق النصر على القسم الداني بقيادة الملوك، وقتل اثنين منهما : هما هالندن (٣) وباسيك Bagsecg (٤)

(١) The Anglo Saxon chronicle, op. cit., vol. I, 177;

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 45; Matthew of Westminster, op. cit., vol. I, p. 421.

(٢) تطلق عليهم الوثائق الانجليزية اسم الامراء او الايرلات. انظر :

The Anglo Saxon chronicle, Ibid; Roger de Hoveden, op. cit, vol. I, p. 64; Matthew of Westminster, op. cit., vol. I, p. 420.

(٣) يبدو ان هناك اكثر من ملك داني يدعى هالندن، وان الذي تلقى مصرعه في هذه المعركة لم يكن هالندن ابن الجوار. انظر ما يلي ص ٢٤.

(٤) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., voi. I, 177; Roger deHoveden,op. cit., vol. I, p. 46; Matthew of westminster, op. cit, vol. I, p.421.

وعلى الرغم من النصر الذي حازه السكسون الغربيون في معركة إشيديون ونجاحهم في قتل عدد من القادة الدانيين وملوكهم، إلا أنهم لم ينجحوا في إبعاد الدانين عن مملكتهم، أو كبح جماح رغبتهم في الاستيطان داخل إنجلترا، أو القضاء على روح المغامرة من نفوسهم أو مواصلة الأعمال العدوانية، لذلك ، كان من الأمور الطبيعيه أن تتجدد المعارك بين الجانبين في مواقع عديدة.

لم يمض على معركة إشيديون سوى اربعة عشر يوما(١) حتى التقى الجمعان الداني، والسكسوني الغربي عند باسينج Basing ، ودارت المعركة بينهما، وانتهت بانتصار الدانيين(٢).

وبعد مرور شهرين تقابل الجيشان ايضا عند ميرتون Meretun ، وانتهت المعركة بانتصار السكسون الغربيين بقيادة الملك إثلرد وأخيه ألفرد(٣).

وهكذا ظل الجانبان يتبادلان النصر والهزيمة خلال هذه الفترة، ولم تحسم المعارك بينهما لصالح احدهما، مما جعل الدانيين يواصلون سياستهم الاستيطانية، وظلت حشودهم تتوافد على مملكه وسكس(٤)، كما اخذ الدانيون يشددون قبضتهم لتحقيق مزيد من السيطرة على بقية الممالك الانجليزية .

(١) يرى روجر الهوفدني ان معركة باسينج جرت بعد اربعة أيام من معركة إشيديون أنظر:

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 47.

The Anglo Saxon chronicle, op. cit., vol. I, p. 177; (٢)

Roger of Wendover, op. cit., p.256; Matthew of Westminster op. cit., vol. I, p. 421.

The Anglo saxon chronicle, op. cit., vol. I, p. 178; (٣)

Matthew of Westminster, op. cit. vol. I, p. 422

The Anglo saxon chronicle, Ibid. (٤)

وجدير بالذكر أن الوثائق الانجليزية لم تحدد لنا تاريخ المعارك سالف الذكر بين الدانيين والسكسون الغربيين، وإنما اكتفت بالإشارة إليها ضمن حوادث عام ٨٧١م. ونظراً لأن الدانيين اعتادوا بدء الهجمات العسكرية بعد انقضاء فصل الشتاء فضلاً عن أن وفاة الملك إثلرد الذي شارك في كل المعارك السابقة كانت في ابريل (١) عام ٨٧١م. إذاً في ١٠٢٠ القرون: أن المعارك التي دارت بين الدانيين والسكسون الغربيين والتي استمرت إلى أنفا قد جرت في اوائل عام ٨٧١م.

ومهما يكن من أمر، فبعد وفاة الملك إثلرد انتقل عرش مملكة وسكس إلى أخيه ألفرد الذي لم يدخر وسعاً في مواجهة الدانيين، وسحاولة زحزحتهم بعيداً عن مملكته. إذ لم يمض على توليته العرش سوى شهر واحد، حتى خرج على رأس فرقه صغيره من السكسون الغربيين والتقى بالدانيين عند ويلتون Wilton في المنطقه التي تقع على الضفه الجنوبيه لنهر الجيلو Guilo وبالقرب من مدينه جويلتشير Guiltshire، ونظراً لقله أعداد السكسون الغربيين، فقد انتهت المعركه بهزيمتهم (٢).

ويبدو أن إنشغال الدانيين بالمعارك في مملكه وسكس، قد شجع أهل نورثمبريا على الثوره ضد ماكنهم اجبرت صنيح الدانيين، فقاموا بعزله في عام

(١) اختلفت المصادر حول تاريخ وفاته، فتشير وثائق الانجلو سكسون انه توفي في ١٥ ابريل، اما متى الومستمنسرى فيرى انه في يوم ٢٣ ابريل عام ٨٧١م، ويرى: وجوهر الهوفدني أن إثلرد توفي في عام ٨٧٢م. أنظر:

The Anglo Saxon chronicle, op. cit., vol. I, p. 178; Matthew of westminster, op - cit., vol. I, p. 422; Roger de Hoveden, op., cit., vol. I, p.47.

The Anglo Saxon chronicle, op. cit., vol. I, p. 178; (٢)

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 48.

٨٧٢م، واختاروا ولفير Wulphere رئيس اساقفه يورك ليحل محله (١)، كما طلبوا من بورجارد ملك مرسيا ان يمد لهم يد العون والمساعدة (٢). وكانت هذه التطورت تمثل تهديداً خطيراً لسياسة الدانيين الاستيطانية، وتتطلب منهم سرعه المواجهه لهذا التحدى السافر.

أسرع الدانيون فى مغادره مملكه وسكس عام ٨٧٣م، وتوجهوا الى مملكة مرسيا التى اعلن ملكها تأييده لموقف نورثميريا المتحدى لسياسة الدانيين. ويبدو أن التحرك الدانى قد أزعج الملك بورجارد فاسرع بشراء السلم من الدانيين (٣).

إما عن مملكة نورثميريا، فقد قام الدانيون باعادة الأمور إلى ماكانت عليه، وعزلوا ولفير، واختاروا ريسيدج Ricsige كى يصبح ملكا على نورثميريا، وصنيعا لسياستهم فى المملكة (٤).

وحتى يضمّن الدانيون عدم تجرأ اجبرت ملك مرسيا على تهديد استقرارهم مرة أخرى، قاموا بعزله عام ٨٧٤م، واختاروا احد الدانيين ويدعى سيولولف Ceolwulf ليتولى عرش مرسيا (٥)، كاقطاع من الملك الدانى، بعد أن أدى يمين الاخلاص لهم وتعهد بالعمل لتحقيق أهداف الدانيين، وأن يكون مستعداً لمحاربة أعدائهم (٦). وتمثل هذه الخطوة تطوراً هاماً فى سياسته

-
- The Anglo Saxon chronicle, Ibid; (١)
Roger of Wendover, op. cit., p. 256. (٢)
The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p. 178; (٣)
Roger de Hoveden, op. cit., vol. p. 48..
Roger of Wendover, op. cit., p. 256; (٤)
Roger e Hoveden, Ibid. (٥)
The Anglo Saxon chronicle, Ibid. (٦)

الدانيين فى انجلترا وقتذاك. إذ لم يكتف الدانيون بالتدخل فى اختيار ملوك من اهل المنطقة التى استقروا بها يملون عليهم سياستهم مثلما كان فى مملكة نورثمبيريا ، وانما أختاروا أيضا من الدانيين من يحكم مملكة فى الجزيرة البريطانية.

وتشير الوثائق الانجليزية إلى أن الملك الدانى هالفدن اتجه بجزء من جيشه فى نهاية عام ٨٧٥م وقضى الشتاء فى المقاطعات المحيطة بمملكة نورثمبيريا، ثم ما لبث أن قام فى صيف عام ٨٧٦م بالاستيلاء على الاراضى الزراعيه فى المنطقه، وقام بتقسيمها ومنحها لاتباعه كقطاع لهم (١).

وتعتبر هذه الإشارة فى غاية من الأهمية . اذ توضح ان القائد الذى تمكن إثلرد ملك وسكس السابق من قتله فى معركة إشيذون عام ٨٧١م ويدعى هالفدن (٢) ، لم يكن هو بعينه هالفدن الوريث للملك الدانى انجوار، وانما الامر مجرد تشابهه فى الاسماء.

كما تشير الوثائق إلى وجود ملوك آخرين للدانيين وقتذاك وهم جوثروم Guthrum واوستيل Oscetel وانوند Amwend قد اتجهوا ببقية الجيش الدانى من نورثمبيريا إلى كامبردج Cambridge، واستقروا لمدة عام (٣).

وتشير الوثائق أيضا إلى أول معركة بحرية بين سفن الدانيين وسفن السنكسون الغربيين بقيادة الملك الفريد، كانت فى صيف عام ٨٧٦، عندما تصدت سفن مملكة وسكس لسبع سفن دانية، وتمكنت من أسر واحدة، وإرغام بقية السفن على الفرار (٤).

(١) The Anglo Saxon Chronicle, op. Cit., Vol. p.178;

Roger of Wendover, op. cit, p. 256;

Matthew of westminster, op. cit. vol. I p. 427.

(٢) انظر ما سبق ص ١٩.

(٣) The Anglo saxon chronicle, op. cit., vol. I, 178.

(٤) Roger of Wendover, op. cit, p. 256.

The Anglo Saxon chronicle, Ibid.

وتعتبر هذه الإشارة أيضا على جانب من الأهمية، إذ توضح أن المعارك التي خاضها الملك، الفرد ضد الدانيين جعلته يتعرف عن قرب على أساليبهم العسكرية سواء على اليابسة أو فوق المياه. فأراد أن يواجههم بنفس أساليبهم، فأمر ببناء سفن طويلة، غير مرتفعة الجوانب، مما يجعلها سريعة الحركة (١)، وبذلك يضع حداً للتفوق المطلق للسفن الدانية التي تمخر عباب الانهار دون مقاومة (٢).

ويبدو أن الصعوبات التي أصبحت تواجه السفن الدانية لم تعد قاصره على تصدى سفن السكسون الغربيين لهم فحسب، وإنما أسهمت الرياح في إضافة المزيد من هذه الصعوبات. ففي عام ٨٧٧م، عندما دخلت قوة بحرية دانية مملكة وسكس، اشتدت عليها الرياح، وجعلتها تصطدم بجزيرة صخريه عند سوناغ Swanag مما أدى إلى تحطيم مائة وعشرين سفينة دانية (٣).

ورغم هذه الصعوبات التي أصبحت تقلل تفوق السفن الدانية، إلا أن رغبتهم الجارحة في الاستيطان جعلتهم يشددون هجماتهم في مملكة وسكس عام ٨٧٧م، حيث جعلوا الملك الفرد يواجه حرجا شديدا أثناء تعقبهم لوجود معسكراتهم داخل الغابات والاحراش والمستنقعات. وأصبح الدانيون حسبما وصفهم روجر الهوفدني كالذئاب الهائجة يسلبون ويذهبون ويدمرون ما اعترض طريقهم (٤). بينما زاد إصرار الملك الفرد على تعقبهم والتصدي

(١) Roger de Hoveden, op. cit, vol. I, p. 58;

Matthew of westminster, op. cit, vol. I, p428.

(٢) Trevelyan, op. cit, p.77.

(٣) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p.179.

(٤) Roger de Hoveden op. cit., vol. I, p. 49;

The Anglo Saxon Chronicle, Ibid.

لهم. وقد توجه الدانيون في اغسطس عام ٨٧٧م إلى منطقته وارهام Waraham ، ثم أنتقلوا منها إلى اكستر Exeter عندما شعروا بمطاردة السكسون الغربيين لهم بقيادة ألفرد. ويبدو أنهم تعبوا من كثرة الانتقال والمطاردة، لذا عقدوا صلحا مع الملك ألفرد، تعهدوا فيه بمغادرة مملكة وسكس. وتشير الوثائق الانجليزية إلى أن الدانيين غادروا المملكة في صيف عام ٨٧٧م، وأتجهوا إلى مملكة مرسيا (١).

ولكن يبدو أن هذا الانسحاب كان جزءاً من الخديعة التي أعدها الدانيون لمباغثة أهل وسكس. إذ عادت حشودهم إلى مملكة السكسون الغربيين في منتصف الشتاء. ويعتبر هذا التحرك العسكى وقتذاك اول هجوم داني يتم في الشتاء. اذ اعتاد الدانيون ان يخلدوا إلى السكينة والراحة في هذا الوقت. ولعلمهم اختاروا هذا التوقيت امعانا في مزيد من المباغثة لاهل وسكس. وقد أثمرت هذه الخديعة في نجاح الدانيين في السيطرة على مساحات شاسعة من أراضي السكسون الغربيين. وفي مارس عام ٨٧٨م اتجه الملك ألفرد بجيشه لمحاربتهم . والتقى بهم في الثالث والعشرين من مارس بالقرب من هامبشير Hampshire في موضع يعرف باسم إديجتون Edington حيث دارت الدائرة على الدانيين، وفروا من ميدان المعركة، وظلت قوات السكسون الغربيين تتعقبهم زهاء اسبوعين، حتى اضطر ملكهم جوثروم إلى عقد معاهده سلام مع الملك ألفرد (٢) والتي كانت معظم بنودها لصالح مملكة

(١) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p. 179;

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 49;

Matthew of Westminster, of. cit. vol. I, p. 428.

(٢) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p. 180;

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 50 ;

Matthew of Westminster, of. cit. vol. I, pp. 430-433..

وسكس (١)، والتي كان من أهمها أن تعهد الملك الداني جوثروم باعتناق المسيحية، ولذلك فقد تم تعميده هو وثلاثين من كبار القادة الدانيين (٢).

وكان من نتائج هذه المعاهدة أن توقفت الاشتباكات العسكرية البرية بين الدانيين والسكسون الغربيين حتى عام ٨٨٤م. وفي خلال هذه الفترة لم تشر الوثائق الإنجليزية إلى هجمات للدانيين باستثناء ما قاموا به بعد توقيع هذه المعاهدة بالتوجه إلى منطقة كيرنكستر Cinencester حيث مكثوا هناك لمدة عام، ووفدت عليهم خلال هذه الفترة حشود كبيرة من الفيكنج (٣).

كما تشير الوثائق التي تحرك الحشود الدانية في عام ٨٨٠م من كيرنكستر إلى مملكة انجلترا الشرقية حيث استقروا بها (٤) / وتشير أيضا إلى نجاح سفن السكسون الغربيين في أسر سفينتين للدانيين عام ٨٨٢م، فأصدر ألفرد أوامره بقتل بحاره السفينتين (٥).

والتساؤل الذي يطرح نفسه هو : هل كان دخول السفن الدانية، مياه مملكة وسكس خرقا لبنود معاهده السلام بين ألفرد وجوثروم؟ ونحن لا نستطيع أن نجيب على هذا التساؤل، وكل ما نستطيع أن نتكهن به في ضوء ما اشارت إليه الوثائق الإنجليزية هو أن هذا الأمر لم يؤدي إلى خرق المعاهدة

(١) عن هذه المعاهدة انظر بحثنا المعنون « دراجه لمعاهدات السلام بين الانجليز والدانيين في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي.

Rayner, R. M., Aconsise history of Britain, London, (٢)
1939, p.16.

The Anglo Saxon chronicle, op. cit., vol. I, p. 180; (٣)

Roger de Hoveden, op. cit, vol. I, p.50.

The Anglo Saxon Chronicle op. cit, vol. I, p. 181. (٤)

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p.51; (٥)

The Anglo Saxon Chronicle, Ibid.

بينهما ، وأن السفن الدانية التي تجرت ودخلت مياه مملكة وسكس لا تعدو أن تكون مجموعة من سفن الدانيين الذين وفدوا حديثاً إلى إنجلترا، ولم تشارك في المعاهدة سالفة الذكر.

ولكن حدث خرق لشروط هذه المعاهدة في أواخر ٨٨٤م عندما هاجمت الحشود الدانية مدينة روتشستر Rochester في مملكة كنت . وعندما علم الملك ألفرد بأنباء هذا الهجوم جمع جيشه وأسرع إلى مملكة كنت لمواجهة الدانيين(١) . ويعتبر هذا الأمر تطوراً هاماً في الصراع بين الانجليز والدانيين في هذه المرحلة. إذ أن الملك ألفرد لم يعد يعتبر نفسه مسئولاً عن الدفاع عن مملكة وسكس من الهجمات الدانية فحسب، وإنما حمل على عاتقه مهمة الدفاع عن كافة الممالك في الجزيرة البريطانية أمام الخطر الداني .

وقد ائتمرت هذه المواجهه بين قوات ألفرد، والدانيين عن انتصار الأولى . وفرار الدانيين تاركين متاعهم وخيولهم غنيمه لقوات ألفرد(٢) .

وفي ضوء المهام الجديدة التي تحملها الملك ألفرد بالدفاع عن الممالك الأخرى، أرسل في نهاية عام ٨٨٤م اسطوله ليتصدى للسفن الدانية التي استقرت في مصب نهر ستور Stour في إنجلترا الشرقية . وفي أراثل غام ٨٨٥م دارت معركة بحرية بين الجانبين انتهت بانتصار الدانيين(٣) .

The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p.181; (١)

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p. 55;

The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p.182. (٢)

he Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p.182; (٣)

Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, p.55;

Matthaw of Westminster, op. cit., vol. I, p. 451.

وإذا كان الدانيون قد أحرزوا نصراً بحرياً عام ٨٨٥م. فإن ألفرد قد نجح في إحراز نصر برى في العام نفسه عندما تمكن من دخول مدينة لندن وطرد الدانيين منها، ثم شرع في إعادة بنائها، وإزالة آثار الحرائق التي اشتعلت بها نتيجة للهجمات الدانية (١).

ويبدو ان هذه التطورت قد ازعجت الملك الداني جوثروم، الذي كان وقتذاك في مملكة انجليا الشرقية، فأسرع في عام ٨٦٦م إلى عقد معاهدة سلام أخرى مع الملك ألفرد كان من أهم شروطها اتفاق الجانبين على خطوط الحدود التي تفصل مناطق النفوذ الداني والآخرى التي تخضع لنفوذ الملك ألفرد. بحيث تمتد هذه الخطوط بطول نهري التيميز ولى Lea من منابعه حتى مدينه بيدفورد Bedford، و بطول الطريق الروماني القديم المعروف باسم ولتنج Walting (٢) وبهذا التقسيم أصبحت مملكة انجليا الشرقية ونورثمبريا في حوزة الدانيين، بينما أصبحت لندن وغالبية مملكة مرسيا بالاضافة الى مملكة وسكس في حوزة الملك ألفرد (٣).

ومهما يكن من أمر، فلقد أدت هذه المعاهدة إلى استقرار الأحوال بين الانجليز والدانيين في خلال هذه الفترة، وتمتعبت انجلترا بالسلم منذ التوقيع على هذه المعاهدة عام ٨٨٦ وحتى عام ٨٩٢م (٤)، وجه

(١) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol, I, p.183.

(٢) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p 182;

The treaty between Alfred and Guthrum (886), cf. E.

H,D., pp. 380 - 381; Also:

Louis, L. S., Basic Documents in Medieval history,

New York, 1959, pp. 39-40.

Stenton, op. cit., p258. (٣)

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

الدانيون خلالها جهودهم شطر الممالك الفرنجية (١).

وتشير الوثائق الانجليزية إلى أن مملكة كنت قد تعرضت في عام ٨٩٢ لهجوم أسطولييين للدانيين: الاول يتألف من مائتين وخمسين سفينة دخلت نهر ليمين Lympne واستقرت عند مصبه، حيث نزل من عليها من الدانيين ومعهم خيولهم التي جلبوها معهم، وقاموا بمهاجمة حصن صغير شيدة اهل المنطقه كى يحتوى المزارعون بداخله، واقاموا لانفسهم معسكراً عند مصب النهر فى المنطقة التى تحيطها الاشجار الضخمة (٢).

أما الاسطول الثانى فكان يتألف من ثمانين سفينة بقيادة أحد الزعماء الدانيين ويدعى هاستن Hastein، ودخلت نهر التيميز، واستقرت فى المنطقة المعروفة باسم ابلدور Appledare (٣).

وبالرغم من وصول هذه الحشود الدانية، والتى كانت تمثل عوناً جيداً للدانيين الذين استقروا فى انجلترا من قبل. الا ان الدانيين فى نورثمبريا وانجلترا الشرقية عندما توفى ملكهم جوثروم عام ٨٩٤م، اسرعوا بتجديد معاهدة السلام التى سبق ان عقدت بينهم وبين الملك الانجليزى ألفرد (٤).

أما عن الحشود الدانية التى استقرت فى مملكة كنت، وأصبحت تهدد

(١) The Anglo Saxon Cronicle, op. cit., Vol. I, pp. 183-184.

(٢) The Anglo Saxon Chronicle op. cit., vol. I, p. 184; Matthew of Westminster, op. cit., vol. I, p447.

(٣) The Anglo Saxon Chronicle, Ibid, (٣)

Roger de Hovden, op cit., vol. I, p.58. (٤)
The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, p .185;
Roger de Hoveden, Ibid.

Matthew of westminster, op. cit. vol. I, p.448.

مدينة لندن، وهامبشير، وبيركشير Berkshire، فقد حشد لهم ألفرد قواته وتوجه إليهم، وقسم جيشه إلى قسمين، تولى بنفسه قيادة أحدهما لمراقبة الحشود الضخمة للدانين عند نهر ليمن، والتصدى لهم إذا حاولوا الخروج من معسكرهم. وجعل القسم الثاني من جيشه يواجه الحشود الدانية عند ابلدور. واستمرت الاشتباكات بين الجانبين حتى عام ٨٩٦، كان النصر خلالها يتأرجح بين الجانبين إلى أن نجح ألفرد في أن يحسم الأمر لصالحه، ويرغم الدانين على الفرار والرحيل بسفنهم بعد مقتل زعيمهم هاستن. كما نجح الجيش الأنجلو سكسوني بقياده ألفرد في أن يتصدى خلال هذه الفترة للهجمات التي شنّها الدانويون الذين كانوا قد استقروا في نورثمبريا وإنجلترا الشرقية، وجددوا المعاهدة مع الملك ألفرد، ولكنهم مالبنوا أن خرقوا شروط المعاهدة، وهاجموا سواحل دوفر، وقدموا العون لآخوانهم في مملكة كنت أثناء صراعهم مع الملك ألفرد(١).

وفي عام ٨٩٩ انتهت حياة الملك ألفرد(٢) بعدما ابلى بلاءً حسناً في الدفاع عن غالبية الأراضي الإنجليزية، وبعدهما نجح لأول مره في جمع الممالك الجزيرة البريطانية على هدف واحد الا وهو مقاومة الدانين(٣)، والحيلولة دون سقوط مزيد من الأراضي في قبضتهم.

وجدير بالذكر أن الهجمات الدانية لم تتوقف عند هذا التاريخ بل استمرت خلال القرن العاشر الميلادي بعدما أصبحت هجماتهم تمثل غزو أمه مترابطة انتهت باعتلاء كانتوت Canute الداني ابن ملك الدانمرك والنرويج عرش إنجلترا بأسرها عام ١٠١٦م(٤).

(١) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, pp.185-189,
Roger de Hoveden, op. cit., vol. I, pp. 58-59;
Matthew of Westminster, op. cit., vol. I, pp. 449-452.
(٢) The Anglo Saxon Chronicle, op. cit., vol. I, pl89;
Symeon of Durham, Historia Regum, ed. E. H.D., op. cit.,
p251.

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ: المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ٢٣٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الاصلية :

- Annals of St. Bertins, cf. English historical Documents (E.H.D.), Lonon, 1968, pp. 314-318.
- Anglo Saxon Chronicle, cf. E.H.D., pp.135-235.
- Asscr, The lige of king Alfre, ed. by W.H. stevenson, Oxford, 1904.
- Letter of pope John VIII to Ethelar archlichop of Canterbury, cf. E..D. p.8ll.
- Mattew of Westminster, The Flowers of history, 2 vols, Lonon, 1853.
- Memorials of St. Edmund's Abley, ed. by M.T. Arnold, 2 vols, Lonon, 1882.
- Roger deHoveden, The Annals, 2 vols., London, 1853.
- Roger of Wendover, Flores Historiarum, cf., E.H.D., pp. 255 - 258.
- Symeon of Durham, Historia Regum, cf. E. H., pp. 239-254.
- Symeons Monashi opera, ed. by M. T. Arnald, 3 vols, London, 1882.
- The Treaty between alfred and Guthrm (886), cf. E.H.. pp.380 - 381.
- Whitelock, D., Saga book of the vinking society, Lonon, 1954.

ثانيا :المراجع الأجنبية :

Haskins, H., The Normans in European history, New York, 1959.

Koenigsberger, H. G., Medieval Europe (400 - 1500), New York, 1987.

Louis, L.S., Basic Documents in Medieval history, New York, 1959.

Morris, B., The Middle Ages, New York, 1983.

Oman, C., The Dark Ages (476 - 918), Lonon, 1962.

Rayner, R.M., Aconsise history of Britain, London, 1939.

Stenton, F. M., Anglo- Saxon England, Oxford, 1947.

Trevelyan, G.M., History of England, Lonon, 1924.

Whitelock, D., The Beginning of the England Society, London, 1954.

ثالثا :المراجع العربية :

السيد الباز لعربنى (دكتور):

«تاريخ اوربا فى العصور الوسطى» ، بيروت ١٩٦٨م .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

«تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور الوسطى» الاسكندرية ، ١٩٨٧م

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

«اوربا العصور الوسطى» (التاريخ السياسى). القاهرة ١٩٦٦م .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):

«تاريخ اوربا فى العصورالوسطى» ، الاسكندرية ١٩٩٠ .

الفهرس

- الفصل الاول :
أحوال برقة وطرابلس فى اوائل العصور الوسطى
١ (٢٨٤ - ٤٥٥ م)
- الفصل الثانى :
معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين فى النصف
الثانى من القرن السابع الميلادى ٢٥
- الفصل الثالث :
دراسة الصراع على عرش مملكة بيت المقدس
ومقتل كونراددى مونتفرات (١١٨٨ - ١١٩٢ م /
٥٩ (٥٨٤ - ٥٨٨ هـ)
- الفصل الرابع :
مدينة مرعش
ودورها فى الصراع الاسلامى الصليبي
٨٥ (١١٠٤ - ١١٧٢ م / ٤٩٧ - ٥٦٨ هـ)
- الفصل الخامس :
الحيل واخذع العسكرية الاسلامية منذ بداية الغزو الصليبي
حتى وفاة نور الدين محمود
١١٩ (١٠٩٨ - ١١٧٤ م / ٤٩٤ - ٥٦٩ هـ)
- الفصل السادس :
معاهدات وهدنات السلام بين الدانيين واهل الجزيرة
البريطانية فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى
١٤٩ دراسة وتحليل
- الفصل السابع :
ملامح الغزو الدانى لاجلنرا فى النصف الثانى من القرن
التاسع الميلادى فى ضوء الوثائق الانجليزية ١٧١

To: www.al-mostafa.com